

مكتبة الشعراوى الإسلامية

من فيض الرحمن





فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

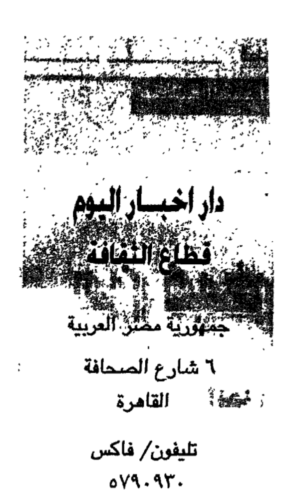
مكتبة الشيخ الشعراوى الإسلامية

من فيض الرحمن

الجزء الثالث

فضيلة الشيخ

محمد متولى الشعراوى



٦ شارع الصحافة
القاهرة

تليفون/ فاكس
٥٧٩٠٩٣٠

تصميم الغلاف والإخراج

أسامة أحمد نجيب

من فيض الرحمن

من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



أدب الدعوة إلى الإيمان

إن الإسلام له منطق الأدب المهذب . . له قوة استعلاء، المنطق له جمال الإيمان القوي الذى يقيم العدل وينشر الفضل، هو منهج الخالق العالم لمخلوق محتاج، والقوة بالإيمان تعرف أن العدل هو المنهج، ولا استعلاء لبشر على بشر، ألا يرقى الإيمان الممتد إلى رسول الله ﷺ أدباً، فليكن رسول الله ﷺ هو قدوة الأدب فى الكلمة وفى السلوك، وفى مراعاة ظروف مَنْ تدعوهم إلى الإيمان.

إن عرض قضية الإسلام إقناعاً وتأييداً ، يجب أن نبنيه على :

* سماحة العرض . .

* لين القول . .

* حكمة [1] الموعظة .

* الجدل الحسن .

لأن ذلك إنْ لم يُقنع الخصم . . فلا أقلَّ من أن يعلمه ، ذلك أن الداعى للإسلام إنسان مُهذَّب بأسلوب منهج الله . .

(١) يقول تعالي : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ [النحل]

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

إن الداعى إلى الإسلام لا يمكن أن يعرض على الناس أن يخرجوا مما تعوَّدوا عليه، بأسلوب يكرهونه .

لأن الإنسان الداعى للهداية يعلم أن الدعوة بأسلوب مكروه تجعل الناس يتحملون مشقتين :

* **المشقة الأولى** : هى إرهاق الناس بأن يخرجوا عما اعتادوا عليه وألِفُوا وتعوَّدوا . .

* **والمشقة الثانية** : إرهاق الطريق الذى يؤدى إلى الجديد بما قد يحمله أسلوب الإقناع الفج من الوقاحة ، وسوء الأدب ، وعدم الحكمة فى الموعظة . .

ولذلك . .

كان العربى قديماً يقول :

- النصح ثقيل فلا ترسله جَدَلاً وتجعله جَبلاً وتلقيه حجراً. فاستعيروا للنصح خِفَّة البيان ، وجميل المعانى . .

وإذا سألنا : لماذا يكون النصح ثقيلاً ؟

فإن علينا أن نعرف الإجابة . .

إن النصح يدفع المنصوح إلى الخروج عما أحبَّ أن يفعله ؛ لذلك فقد يستثقل النصح .

وقد يكون المنصوح لا يحب إلا مَنْ يزيِّن له أمر شهوته .

وقد يكون المنصوح لا يحب أن يفكر فى إصلاح نفسه .

ولذلك نجد الأدب العالى فى منهج القرآن . .

فها هو الرسول ﷺ يتلقى تعليم ربه بأن يقول لخصومه :

﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

إن محمداً ﷺ يتحدث إلى خصومه بأن كل واحد من البشر مُحَاسَب على عمله ، فأنتم أيها الخصوم لا تُسألون عن "إجرام" أىٍّ من المؤمنين . . ونسب الإجرام هنا لنفسه وللمؤمنين ؛ لأن خصوم الإسلام نظروا إلى الإيمان أول الأمر على أنه جريمة . .

ولكن حين أراد الرسول ﷺ أن يَصِفَ سلوك الخصوم قال بلسان الحق : ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

إن قياس الكلام هنا كان أوجب أن يقول الرسول : " ولا نسأل عما تُجرمون " .

لكن الله يُعلِّم نبيه ورسوله ﷺ آداب الجدل . . فلا تأتى سيرة الإجرام حتى بالنسبة لمن يتحقق عند الله إجرامهم ، ومع ذلك لم يجابههم الرسول ﷺ بالإجرام . .

هذا هو أدب الجدل . .

يُعلِّمنا الله أن نسموَ بالجدل . . فلا نلذع[1] الخَصْم بالسياط . .

ولكننا نرتفع عن شهوة البشر فى الاستعلاء . .

ونجادل بمنطق الحق ، بسماحة العرض .

هكذا يجب أن يكون حال الداعية للإسلام . .

وهكذا يجب أن نستقبل كل خصومة للإسلام .

ولكن ليس معنى ذلك أن نترك للفتنة بذوراً تكبر . . بمعنى أن خصوم الدين إذا أحبوا أن يعيشوا سالمين فهم أحرار فى تصوراتهم وتشخيصاتهم . . وهم تاركون لمنهج الله أن يسيطر . وما دامت الغالبية آمنت بالله ولا أحد من الخصوم يقاتلها فى دينها . . ولا أحد يحاول أن يُخرِج الغالبية من أرضنا . .

لهذا نترك الخصوم يعيشون فى رحمة هذا الدين[2] .

وأما إذا فكروا تفكيراً غير هذا . . فالإسلام يتطلب من المؤمنين به أن

(١) فإن كلمة المعروف في جمالها تفوق عطاء المادة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة : ٢٦٣] ، ولا إكراه فى الدعوة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩] وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [إبراهيم]

(٢) يقول تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ [الممتحنة]

يضربوا على أيدى الخصوم من أول الأمر . . حتى تكون كلمة الله هى العليا . .

وستكون دائماً كلمة الله هى العليا . .

لماذا ؟

لأنه إنْ جاء فى ظاهر الأمر فى بعض الأحيان أن أنصار الحق صاروا دون أنصار الباطل . . فذلك درس يُعلِّمه الله سبحانه للبشر .

الدرس هو . .

كيف يكون أمر الحياة إذا ما علا الباطل فى الأرض ؟ . . ومن المؤكد أن أمر الحياة يكون سيئاً فى حالة سيادة الباطل .

ونحن إن لم نُلدغ بباطلٍ يغلب علينا ويستذلنا . . فإننا نتعلم من ذلك أن سيادة الحقِّ هى سيادة لمنهج الله . .

والباطل لا يسود إلا إذا انتشر التقصير بين الناس فى أمور الدين . . عندئذ يستعلى عليهم أصحاب الباطل . . ويلدغ الباطل أصحاب الحق . .

إننا نتعرف على الفرق بين "الحق" و "الباطل" بالمقارنة بين الاثنين وإنْ لم يكن هناك تفريق بين الاثنين فنحن لن نتمسك بالحق . . لذلك يُعلِّمنا الله التفريق بين الحق والباطل .

ويعلمنا الله ذلك بأدب الجدل . .

ويعلمنا الله كيفية الوصول إلى الحق بقوة البرهان . .

والله لا يستعدى أحداً على أحد إلا بمنطق الحق . .

وعندما نستعرض تاريخ الإسلام الطويل فلسوف نجد أن الإسلام ارتفع بأمرين :

الأمر الأول : اندفاع المؤمنين به إلى نشره كدين يهدى الناس ، وفى هذا قوة المدد الإلهى الذى ينتصر به دينه .

الأمر الثانى : هو استغاثة المحكومين بالباطل ، حيث مدوا أيديهم إلى الحق ليأخذ بيدهم . .

ولذلك نجد أن كثيراً من فتوحات الإسلام قامت على أساس من دعوة أهل البلاد المفتوحة . . حيث طلب هؤلاء الناس أن يأتى إليهم المسلمون ليُخلِّصوهم مما هم فيه من شر . .

وهكذا نرى أن الإسلام انتشر وانتصر من خلال :

* قوة اندفاع المؤمنين به لنشر كلمة الله . .

* قوة إقبال المظلومين من الباطل على الدين الجديد لينصفهم من العَسْف [1] والظلم . .

(١) العسف : الظلم الشديد والجور .

ولذلك نجد غالبية المسلمين أو كثرتهم فى أمم لم يدخلها الإسلام بالقتال . . بل إن غالبية الأمم المسلمة أخذت الإسلام بالقدوة الطيبة والأسوة الحسنة . .

وشىء آخر علينا أن نلاحظه . .

إن الأمم التى دخلها الإسلام بالفتح والجيوش ظلت فيها ديانات معادية للإسلام .

ومن هذا نستنتج أن الإسلام لو كان قد جاء لإجبار الناس عليه لما وجدنا ديانات أخرى فى البلاد التى فتحها الإسلام ، وذلك يدل على أن الإسلام لم يحمل السيف ليجبر إنساناً على الاعتقاد بالإسلام ؛ لأن الإسلام فى جوهره هو جماع القيم النابعة من الأديان ، والقادرة على هداية البشر ، ومنحه طاقات لاحدود لها ، من أجل الحب والخير والعدل والسلام .

وما دام الله قد شد أزْر [1] المؤمنين بجماعة تؤيد منهج الله لتنظيم حركة الإنسان . . فلماذا إذن يعلو السيف ؟ . . إن المثل والقدوة الحسنة والأسلوب الواضح فى الحق . . كل ذلك كانوا جنود الإسلام . . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

(١) الأزر : القوة. شد الأزر : الإعانة والتعضيد.

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [1] وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ [2] يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا [3] (٢٩) ﴾ [الكهف]

هكذا يؤكد الله سبحانه وتعالى منهجه . . الحق هو منهج الله . . والباطل يقود إلى نار تحيط بالإنسان الكافر بالحق من كل الجهات ومَنْ يستغثْ من الظالمين عطشاً يُسْقَ بماء كالزيت العكر الساخن يحرق الوجوه بلهبه . .

وإذا نظرنا إلى كلمة "إسلام" نفسها . . نجدها قد جاءت اسماً ووصفاً وعَلماً . .

والشيء إذا كان وصفاً يظل يحمل معناه . .

لكن الشيء إذا كان اسماً فإنه يأخذ معناه وأكثر من معناه .

كيف . . ؟

لنأخذ مثلاً يدل على ذلك . .

إذا قال أحدنا : "هل رأيت القمر؟" . . فإن المستمع ينصرف ذهنه

(١) السرادق : هو كل ما أحاط بشيء من حائط أو مضرب أو خباء .
(٢) المهل : الزيت العكر المغلي . أو : هو النحاس والحديد المنصهر .
(٣) أي : ساءت النار منزلاً وموضعاً للارتفاق أي : الحياة بكل ما فيها .

إلى الكوكب الفضى المضىء الذى يضىء ليل الأرض ويأخذ ضوءه من الشمس . .

ولكن إذا سمَّى واحد ابنته "قمر" فهل معنى القمرية يظل موجوداً فى هذه الفتاة ؟

لا . .

لأنها قد تكون غير جميلة ويسميها والدها "قمر" . . تماماً كما قد يكون هناك إنسان شقى فى حياته رغم أن والده سمَّاه "سعيد" . .

لكن كلمة إسلام هى اسم ووصف وعَلَم . .

لماذا ؟

لأن الإنسان لا يُسلم قياده إلا لمَنْ هو أقوى منه . .

الإنسان عادة لا يُسلم قياده لمساويه . . بل يُسلم قياده إلى مَنْ هو أكثر قدرة وحكمة وعلواً . . بدليل أن الطفل يُسْلم قياده لأبيه . . يترك للأب مهمة اختيار الملبس والمأكل . . لكن عندما يكبر الطفل ويصبح شاباً فإنه يرفض أن يشترى له أبوه كل شىء . .

هنا يخرق الابن قانون إسلامه بأبيه . . والسبب هو أن الابن يشعر أن ذاتيته مستقلة . .

ولهذا فالحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا بعد البلوغ . . أى :

بعد اكتمال الذاتية الخاصة بالإنسان . .

والسبب فى ذلك أن الإسلام لو كان قد تَمَّ التكليف به كدين قبل البلوغ فقد يأتى الشاب فى مرحلة من مراحل الاستعلاء ، ويقول :

" لا . . لقد تعاقدتُ على الإيمان وأنا ناقص العقل " . .

ولذلك لا يكون التكليف إلا بعد البلوغ . . حتى يكون الأمر إلزاماً بمعنى الكلمة . .

فإذا كان الأمر هكذا . . فالعاقل لا يُسلم زمامه إلا لمن هو أعلى منه . .

والناس كلهم سواء . .

أنت إن تميزت عنى بشىء . . فأنا أتميز عنك بشىء آخر . .

إذن : فليس من المعقول أن أسلم زمامى إلى مُسَاوٍ لى وهو الإنسان . .

وكان الإسلام أكثر الأديان فهماً لهذه الحقيقة . .

فالإسلام يقرر أن الأديان جاءت ممن هو أعلى من الإنسان . .

تلقَّى آدم [1] المنهج من ربه . .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] ومنها نأخذ الأمر والنهى ، وهما عين التكليف، ومن هنا نبدأ فى الاختيار.

وأبلغ آدم أبناءه بالمشهدية ما عرف . .

والرسل تلقوا أمر الإيمان ممن هو أعلى من البشر جميعاً . . من الله . . فإذا أسلم الإنسان أمره إلى الأعلى فلا غضاضة . .

لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يسلم أمره إلى مُسَاوٍ له . .

بل كل إنسان يسلم لمن هو أعلى . .

لذلك إذا قرأنا القرآن . . فإننا نجد العبارات تؤدى المعنى تماماً . . فكل مَنْ قرأ القرآن تعرَّف على قصة ملكة سبأ [1] والنبى سليمان ويجد فيها عجائب متعددة . . والله عندما يضرب مثلاً بقصة ما فهو لا يضربها للبشر من أجل قتل الوقت ، ولكن من أجل العبرة التى تصبح دستوراً ينتفع به المؤمن فى حياته . .

وأول قصة سليمان نعرف منها أن الله سخَّر لسليمان الجنَ والإنس والطير والريح . . ولذلك لم يستطع أحد من البشر أن يقاوم سيدنا سليمان بقوة ما . . لأن سليمان يملك من القوة ما لا يملكه بشر . .

وعندما نعرف أن سليمان كان ملكاً ونبياً . . فإننا نتساءل :

– لماذا اختار الله معظم رسله غير ملوك ، واختار أيضاً أحد الرسل وكان ملكاً ؟

(١) سبأ : مملكة يمنية قديمة ، حكمتها بلقيس زمن سليمان عليه السلام .

إن فى ذلك مثلاً واضحاً للإنسان فى أن الله لو أراد أن تستقيم الأمور لما استطاع أحد من خلقه أن يرفع رأسه . . فها هو يختار رسولاً لا يستطيع أحد أن يرفض له طلباً ، لأنه يملك القهر والسلطان . .

لكن الله لا يريد ذلك . .

الله يريد أن نذهب إليه طواعية . .

الله يريد أن نسير فى طريقه حتى ولو كان الذين يدعون إليه من الضعاف . .

لأن معنى ذلك أن الحب هو الذى دفعنا إلى الإيمان . .

ونحن نعرف كم تعب [(1)] الرسول محمد ﷺ فى أول أيام حياته الدينية . .

لم يكن فى قدرة الرسول حماية أصحابه .

ولعل فى ذلك رمزاً إلى أن الله يريد أن يذهب إليه مَنْ يملكون قوة الحب وحدها . .

---

(١) حتى إنه رفع شكواه إلى الله قائلاً بعد ما لاقاه من سفهاء أهل الطائف من الضرب بالحجارة حتى أدمَوْا قدمه فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى مَنْ تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكْته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىَّ سخطك ، لك العُتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢ / ٤٢٠) .

وكانت هذه القوة التى يملكها الضعفاء هى القادرة على الوقوف فى وجه قريش . . قريش التى لا يمكن لعربى فى ذلك الزمان أن يرفع رأسه أمامها . .

إنها قوة لا تُقهر . . تملك قريش رحلتى الشتاء والصيف . . وهم شبه ملوك من موقع السيادة . .

وأراد الله لرسوله محمد ﷺ الاختبار . لم تناصره قريش فى البداية . .

لأنها لو ناصرته فى البداية لقال الناس : " إنها قبيلة تعودت على السيادة فتعصبوا لواحد منهم ليسودوا به الدنيا " . .

ولو حدث ذلك لكان ما وصل عن الإسلام إلينا هو أنه دين " العصبية " ، وأنه انتشر بعصبية قبيلة محمد ﷺ . .

لكن الله أراد أن تقف قريش ضد محمد ﷺ . .

وأراد أن يكون محمد ﷺ ضعيفاً[1] فى مولده . .

ضعيفاً فى مركزه الاقتصادى . .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ [الضحى]

لكنه قوى بالإيمان والقدرة على الإدراك . .

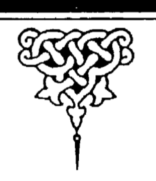
وهكذا أصبح الإيمان بما جاء به محمد هو الذى خلق العصبية لمحمد ﷺ . .

عصبية حب الإيمان والانتماء إليه والدفاع عنه .

والتواصى بحقه ، والصبر على ما يأتى الكفار به .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن

من قصص القرآن نتعلم



الإيمان قـول وفـعل . . تدريب وإتقـان، وسـجـود لخـالق عـزة الإنسان. إن الإسلام هو إلقاء الزمام من المسلم لمن أسلم إليه الزمام.

والبشر جميعاً متساوون . .

لذلك .

فلا يمكن لإنسان أن يلقى زمامه لإنسان . .

فإذا ما جاءت صيحة السماء تقول للناس :

- انتبهوا إلى رسالتي . .

فمعنى ذلك أن السـماء تنبه الإنسـان إلى من يجب على الإنسـان أن يسلم إليه الزمام .

إن السـماء تريد أن تنقذ الإنسـان من العبودية لمساوٍ له أو العبودية لمن هو أقل شأناً من الإنسان . .

إن السماء تقول فى رسالتها : إننا لا نسلم زمامنا لمساوٍ لنا . .

إنما نسلم الزمام لخالقٍ لنا . .

لأن إسلام الإنسان لمن هو أعلى منه بالإجماع . . لا يجعل أحداً يسلم لبشر مثله فيكون ذليلاً أو تابعاً . .

وقلنا : إن الإسـلام حينما يكون مجرد وصف . . فـإن ذلك الوصف ينطبق على رسـالات جميع الرسل، لكن رسالة محمد ﷺ امتازت بأنها

أخذت «الإسلام» وصفاً؛ لأنها أسلمت الزمام لله.

ورسالة محمد ﷺ أخذت الإسلام اسماً وعلماً عليها.. وقال الله في ذلك:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾ [سورة الحج]

إن النص القرآني هنا صريح ومحدد بأن الإيمان مرتبط بالعبادة، والعبادة ترتبط بفعل الخير.. وفعل الخير يستدعي الجهاد في سبيل الله الذي اختار الإيمان للمؤمنين واختار المؤمنون الإيمان به، وليس في الدين ما يجعل الإنسان في حرج.

إن الإسلام هو الدين الخاتم، والإسلام هو الدين الأول.. فإبراهيم أبو المؤمنين وقد سمى الله المؤمنين به المسلمين، وأنتم مسلمون في الكتب السابقة على القرآن لرضاء المؤمنين بما شرعه الله، فكونوا كما سمَّاكم الله

مسلمين، ولتكون عاقبة إسلامكم هى إتقان هذا الإسلام حتى يشهد الرسول لكم يوم القيامة بأنه بلغكم بالدين، وعملتم بما أبلغكم فتسعدوا فى الحياة وفى الآخرة.

وهكذا نرى أن الله سمَّانا المسلمين.. ولم يصفنا بالمسلمين..

لأن الإسلام للمؤمن [1] وصفٌ واسمٌ وعَلَمٌ..

ولذلك معنى واضح، وهو أن الدين عند الله هو الإسلام.

ولأن الاسم أصبح وصفاً لنا وعلماً علينا..

لكن الإسلام بالنسبة للسابقين علينا هو وصف فقط..

إن كل الديانات موصوفة بأنها مسلمة..

ولكن نحن أتباع رسالة محمد ﷺ، فنحن مسلمون بالوصف والاسم والعلم.. الإسلام اسمنا وعلمنا وصفتنا وعلامة لنا..

وإسلامنا للأعلى سبحانه.. لله خالق الدنيا ليس فيه استذلال.

(١) الإسلام لغة: هو الاستسلام والإذعان. وفى الشرع: هو الدخول فى دين الإسلام بنطق الشهادتين. أما الإيمان: فهو تصديق القلب وإقراره بالله والملائكة ورسل الله وكتبهم واليوم الآخر والقدر خيره وشره. لذلك فدائرة الإسلام أوسع من دائرة الإيمان، فدائرة الإسلام يدخل فيها كل من نطق لسانه بالشهادتين وأتى بأحكام الإسلام الظاهرة، وإن لم يدخل الإيمان فى قلبه، ويوضح هذا قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ.. (١٤)﴾ [الحجرات]

لأن الإسلام جاء كدين حتى لا يستذل إنسان بشراً آخرين .

الدين جاء ليحرر البشر من الذل . . وأن يكون منهج السماء هو المسيطر .

ولعل أهل ريف مصر قد أبصروا ببصيرتهم الحادة هذا القدر من الإيمان بالله . . فقالوا ما معناه :

- إن الذى يأمر الشرع بقطع إصبعه . . فلابد أن هذا الإصبع لا ينزف دماً أو يعقب ألماً .

وفى هذا المعنى إذعان مليء بالكبرياء . . إذعان للشريعة ، ثم كبرياء بالمساواة فى ظل هذه الشريعة .

وفى هذا المعنى أن الحكم عندما يأتى من الأعلى فلا مرارة ولا غضاضة ولا ألم . . وفى هذا الإيمان ما يمكن أن تذهب به الخصومات الفردية .

فعندما يختصم اثنان فى خلاف . . فإن رغبة كليهما فى إنهاء الخلاف لا يمكن أن تتم برضاء ناضج وكامل وسَمْحٍ إلا فى ظل شريعة الله سبحانه وتعالى .

وعندما تتولد الرغبة فى الصلح بين فردين أو جماعتين . . فإن هذه الرغبة هى قرار سماوي . . ولذلك يُهيِّيء الله للفردين أو الجماعتين طرفاً

ثالثاً يمكن أن يضع الله فى حركته ما يسهل الصلح بين الفردين أو الجماعتين.

وما لم يكن الاثنان أو الجماعتان ميالين للصلح [1].

وما لم يكن الطرفان لهما رغبة فى الخروج من دائرة الخصومة ومرارتها.. فإن الصلح يتعثر..

وأيضاً مما يؤجل صلح الطرفين - أى: طرفين فى خصومة ما - هو جراح الكرامة.

إن كل طرف يحرص على كرامته فلا يخطو إلى الآخر..

لذلك يُهيِّيء الله طرفاً ثالثاً يصبح ستاراً للمتخاصمين..

وقد يقول أحد طرفى الخصومة:

- لولا تدخل هذا الطرف الثالث لما تم الصلح..

لذلك كان الإسلام للأعلى.. هو ستار لمداراة غرور البشر.

ولعل الحكاية القادمة - رغم أنها تثير الضحك - إلا أنها تعطى

---

(١) وهذا نحو ما ذكره رب العزة عن الإصلاح بين الزوجين: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ..(٣٥)﴾ [النساء]

وذكره أيضاً عند التقاتل بين طائفتين يقول سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ [الحجرات]

الصورة الواضحة لمداراة غرور البشر . .

الحكاية تقول : إن رجلاً تخاصم مع امرأته التى يحبها وتحبه ، وعَزَّ على كل منهما إزالة الجفوة .

الرجل تصلَّب على رأيه . .

المرأة تصلَّبت على رأيها . .

والوقت يطول . .

وشوق كل منهما إلى الصلح يزداد .

والوقت يمر . .

والكبرياء ترفع الخصومة فى الظاهر . وتخفى الشوق فى الباطن .

والرجل جالس فى حجرته المغلقة .

والمرأة جالسة فى حجرتها .

المرأة أرادت أن تعرف حال زوجها . . فسا بت على أطراف أصابعها إلى حجرة الزوج . . كان باب حجرة الزوج مقفلاً . . نظرت المرأة من ثقب الباب على زوجها . . وجدت المرأة زوجها رافعاً يديه إلى السماء ويدعو الله قائلاً بتوسل :

– يا رب اجعل زوجتى تأتى لتصالحني . .

وفرحت المرأة أكثر وهى تسمع الزوج يستغيث بأولياء الله ويقول :

- يا سيدة زينب لك عندى نذر قدره كذا إذا صالحتنى زوجتي . .

وكان قلب الزوجة يزداد فرحاً . . فذهبت إلى حجرتها ولبست أجمل ملابسها . وسارت بخطوات فيها خجل ، وكأن هناك من يدفعها إلى غرفة الزوج ، وهى تهمس بصوت مسموع :

- لماذا تجبرينى على الصلح معه يا سيدة زينب ! !

وهكذا نرى أن التحجج بالسيدة زينب هو ستار للحب . .

والحكاية على طرافتها تشرح كيف يحب كل طرف فى خصام أن يتدخل طرف ثالث .

وعندما نرى أن الله أراد أن يحفظ للبشر استعلاءهم وكرامتهم فقد وضع من التشريعات السماوية ما يحمى هذه الكرامة ويؤكدها .

ومثال ذلك هو علم الحق تبارك وتعالى أن هناك خلافات بين المجتمعات ، قد تصل إلى الحروب . . والحروب تدمي الطرفين وتزيد آلام الطرفين . . فإذا بلغ الإرهاق مبلغه بكل فريق . . فإن الكبرياء قد تمنع أحدهما من إعلان ضعفه . . لذلك فإن الله يضع فى تاريخ العام أشهراً حُرُمًا . . يحرم فيها الله القتال على البشر [1] .

(١) وفي هذا يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ .. (٣٦) ﴾ [التوبة] .

وهكذا عندما تأتى شهور رجب وشوال وذى القعدة وذى الحجة فإن الفريق المرهق من القتال يمكنه أن يقول :

- آه لو لم يأت شهر رجب . . آه لو لم يأت شهر شوال . . أو شهر ذى القعدة أو شهر ذى الحجة . . آه لو لم تحل الأشهر الحرم . . لولا ذلك لفعلت بعدوى كذا وكذا وكذا . .

إن الأشهر الحرم ستار للضعيف، ومراجعة لغرور الإنسان، وحفاظ على كرامة الإنسان .

ويصل الأمر بالسماء إلى أن تحدد مكاناً لا يدور فيه القتال على الإطلاق . . وهو المسجد الحرام [1] .

إن تحديد مكان لا يجرى فيه أى قتال يحمى الضعيف بأن يلجأ إليه . . ويمنع القوى من التمادى فى إظهار القوة .

هكذا نعرف أن الله وضع لنا التشريع الذى يحمى الكرامة البشرية، ويشذّب غرورها، ويؤكد استعلاء الإنسان دون ذل .

ولنتأمل مرة أخرى قصة ملكة سبأ . .

نتأملها بروح الفهم المتجدد واليقين الثابت بأن الله يطرح لنا قصة ما أو جزءاً من رواية ما . . والهدف من ذلك هو أن تتضح لنا العبرة .

---

(١) جاء هذا التحديد فى قوله تعالى : ﴿ . . وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) ﴾ [البقرة] .

قال الله عن سليمان الحكيم فى سورة النمل :

﴿ وَتَفَقَّدَ(1) الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) ﴾

[سورة النمل]

إننا بالتأمل لمعانى هاتين الآيتين نرى فيهما أن سليمان تفقد الطير واكتشف غياب الهدهد . . وقرر عقابه على ذلك الغياب ما لم يأت بأدلة وأسباب للغياب .

إنها صرامة ممزوجة بالعدل .

وتلك صفة الحاكم العادل، الحزم عنده ممزوج بالعدل . .

والقصة تأتى بعد ذلك بأن الهدهد عاد إلى سليمان، ومعه الدليل الثابت الواضح الذى يعلنه للحاكم سليمان . .

ويقول الحق تبارك وتعالى عن الهدهد فى سياق القصة القرآنية :

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) ﴾ [النمل]

ها هى قوة الله تتجلى لنا فى إقامة العدل . .

(1) التفقد : طلب ما غاب عنك بالسؤال عنه .

إن المتهم فى القصة طائر . .

ولم يستطع سليمان - وهو نبى وملك فى آن واحد - أن يعاقب الطائر على سلوك لم يُعجبه .

إنما كان على سليمان أن يهضم أولاً صفات ومميزات الحاكم العادل . .

إن الحاكم العادل هو الذى يفهم ظروف المحكومين حتى ولو لم يكونوا بشراً . .

وعلى الحاكم العادل أن يترجم هذا الفهم إلى سلوك . .

ولهذا نرى أن سليمان لم يصدر حكماً غيابياً ضد الهدهد . . إنما انتظر حتى يعود الهدهد ثم تكون المحاكمة بعد ذلك . .

وعندما عاد الهدهد من مملكة سبأ . . كان يحمل الدهشة .

لقد رأى هنالك ما أذهله . .

لقد رأى بشراً يسجدون لغير الله ! !

لقد رأى بشراً يسجدون للشمس . .

وكانت دهشة الهدهد . . هى دهشة الفطرة . .

لقد تساءل الهدهد «ألا يعرفون من يجب السجود له . . فنسوا السجود لله وسجدوا للشمس وهى إحدى مخلوقات الله ؟» .

ويحكى لنا الله فى عظمة بالغة وأدب حكيم . .

إن الهدهد يعرف أن سليمان النبى يعرف لغته . . لقد علَّم الله سليمان لغة الطير[1] . .

ويصف الله تعالى موقف الهدهد . . لقد وقف غير بعيد من سليمان ، وامتلك يقين الحق فصار قوياً . . يقول للحاكم :

- أنا أعرف ما لم تعرف . . لقد جئتك بنبأ يقين . .

إن المحكوم هنا امتلك الحق فصار به قوياً . . فأعلن قوته للحاكم .

وهذه الحكاية تدلنا على أن الإنسان إن رأى خيراً فى أمته وجماعته فليفعله دون أن ينتظر أو يستأذن ، وذلك حتى لا تضيع فرصة فعل الخير .

وتستمر قصة سليمان الملك وهو يستمع باندهاش لما يقوله الهدهد . . تستمر القصة لتعطينا ارتفاعاً فى العقيدة . .

إن الهدهد وهو طائر - وهو المسخَّر بقوة الله لخدمة الإنسان . .

إن الهدهد يعرف أن السجود لله وحده . .

إن الهدهد يعرف أن الله خالق العالم والكون . .

إن الطائر يتعجب ويندهش ، وهو يحكى لسليمان عن ملكة سبأ :

---

(١) واعترف سليمان لله بهذا الفضل على ملأ من الناس فقال : ﴿ .. يَٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] .

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾

[النمل]

لقد روى الهدهد الحقيقة . .

– إن ملكة سبأ وقومها أخطأوا الطريق فسجدوا للشمس من دون الله، ومنعهم الشيطان عن طريق الخير، وأصبحوا لا يعرفون طريقاً للهداية . . ويتساءل الهدهد باندهاش :

﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ [1] فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾ [النمل]

إن الهدهد يعرف طريقه إلى الله . ويعرف الهدهد بإيمان مطلق . . أن الله يعلم ما فى السموات والأرض . . وهو كطائر يعرف أن الله خلق له المنقار الطويل ليبحث به عن الطعام تحت سطح الأرض . .

(١) الخبء : الشيء المخبوء عن الأنظار ، وقد دلل الهدهد على كلامه بما يشاهده ويمارسه في قوله تعالى : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل] فإن الخبء المتواجد في باطن الأرض هو غذاؤه، وقد يقيض الله له منقاراً يستطيع به البحث عن قوته، وهذا دليل الممارسة والمشاهدة ، وهو عين اليقين.

وتستمر القصة في مدلولها الإيماني . .

يأمر سليمان الهدهد بأن يأخذ كتاباً إلى ملكة سبأ وقومها :

﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون (٢٨) ﴾ [النمل]

ويطير الهدهد حاملا رسالة النبي الملك سليمان . . ويلقيه على ملكة سبأ . . فتقول :

﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم (٢٩) إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم (٣٠) ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين (٣١) قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون (٣٢) ﴾ [النمل]

إن ملكة سبأ تعطى الدرس فى فن القيادة . . إنها تتلقى رسالة من الملك سليمان بدعوة إلى الإيمان . . وهى تريد أن تعطى الدرس فى فن السياسة بالرأي . .

إنها تحاول أن تأخذ رأى القادة الذين معها . . ولا تحاول أن تجبر[1] من

(١) هذا درس فى فن القيادة ، ومبدأ من مبادئ الشورى بعرض القضايا على القادة – ولأمانة الحكم قال القادة . نحن لنا وظيفة ، وهى القوة الدفاعية وليس لنا فى القضايا السياسية ، فكل منا له رسالته المسئولة منه .

حولها ومن في دائرة ملكها على الانحناء بالقوة لما ترى من رأي . .

ولعل الشاعر العربى قد فطن قديماً إلى أن الرأى أهم من القوة فقال :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أولاً وهى المحل الثاني

ولعل ملكة سبأ تحاول أن تتعرف على رأى من حولها . . لكن من حولها من قادة عسكريين يقولون :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾ [النمل]

هنا قال القادة لها : نحن مقاتلون وليس لنا فى الرأى السياسى شيء . . أنت التى تقدِّرين الرأى السياسي ، وبعد ذلك تصدرين الأمر لنا بالحرب أو بغير الحرب . . هكذا نستشف أن أهل القوة وأهل البطش وأهل العزم ليس من وظيفتهم القول في الرأى السياسى . . إنما مهمتهم أن ينفذوا ما انتهى إليه أصحاب الآراء فى هذا الشأن .

لماذا؟ . .

لأن صاحب القوة والبطش . . ربما تدفعه قوته وحماسته إلى قياس الأمور بمنطق الشدة ، والمسألة ليست كذلك . . إن قياس الأمور لا يحتاج إلى البطش قبل الرأي . . إنما قياس الأمور يحتاج إلى الرأى أولاً .

وهكذا يصبح على ملكة سبأ أن تتحمل وحدها مسئولية الرأي ، وترى

الملكة أن الحكمة فى كلام محدد وواضح يعرضه علينا القرآن دون أن ينكره؛ لذلك تقول ملكة سبأ :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل]

إن القرآن يعرض الحكمة التى تقولها المرأة ملكة سبأ من أن الملوك عندما يدخلون قرية فإفسادها يتم على أيديهم، ويجعلون العزيز من أهلها ذليلاً . . ويعقِّب القرآن ﴿ . .وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) ﴾ [النمل]

وهكذا نرى أن القرآن الكريم عندما يعرض لقضية أو حاجة ولا يأتى بنص واضح ببطلانها . . فمعنى ذلك أنه يوافق عليها . . ورغم أن الحكم بإفساد الملوك للقرى التى يدخلونها قد جاء على لسان امرأة . . فهل المرأة كاذبة؟ . . لا . . إن القرآن يؤكد الصدق فى الحكمة عندما يقرن حكمة المرأة بقوله ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾وتفكر ملكة سبأ فى سلوك سياسي . . فتقول : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) ﴾

[النمل]

إن الرأى السياسى هو هدية تختبر بها سليمان وقومه . . فإن كانوا يريدون المال والثراء فسوف يقتنعون بالهدية . . أما إذا كانوا يريدون المنهج . . فالمسألة غير ذلك . . ولهذا نرى أن سليمان استقبل الهدية

استقبال توضيح لما يريد. إنه لا يريد المال، ولكنه كان يعرض فى رسالته منهج الإيمان[1]:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

وتستمر القصة لتؤكد أن سليمان لم يطمع فى مال.. إنما كان طموحه أن يؤكد منهج الله..

إن سليمان النبى الملك معزز بالعلم وبالقوة، مما يجعله قادراً على أن ينقل عرش الملكة إلى دولته..

وتعرف ملكة سبأ أن الآية آية منهج.. وأنه لا مفر من الإسلام.

ولترى ملوكية الإيمان..

ولترى استعلاء العقيدة..

وتعرف أن مُلْكها لا يساوى شيئاً بجوار مُلْك سليمان النبى الملك..

إن سليمان عندما وصله الرسل بمال ملكة سبأ.. أعلنهم أنه يستمتع بنعم الله التى تفوق كل ما يتخيلون، ويأمر الرسل بالعودة، ويقول

(١) إذن: رسالة سليمان فى مطلبه لم تكن رسالة ملك يريد الإفساد فى القرى، أو يريد المال، وإنما يريد الإيمان؛ لأنه قبل أن يكون ملكاً فهو نبى، وحكم بلقيس الأول عليه كان حكماً على ملك من شأنه إذلال العزيز، ولكن الحكم تغيَّر.

لرسول ملكة سبأ :

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل]

ويجمع سليمان النبى ما أفاض الله به عليه من تأييد المخلوقات إنساً وجناً وطيراً وغير ذلك . . ويقول سليمان :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي

ظلمتُ نفسي وأسلَمْتُ مع سُلَيْمَانَ لِلَّهِ ربِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل]

هي قصة إيمان . . تروى حكمة نبى هو سليمان . . فالمنهج محدد لدى سليمان . . إنه لا يرغب مالاً . . لأن الله أفاض عليه بنعيم وطاعة . . إنه يستطيع أن يحرك إلى مملكة سبأ من الجنود ما لا قبل لأهل المملكة بها . . ويملك الجند القدرة على إذلال أهل المملكة . . ويحذر سليمان رسول سبأ . . ويتدارس الأمر مع جنوده من الإنس والجن والأنعام . ويعرض القرآن لقوة سليمان . . ويختار سليمان تعبيراً عن القوة . . قدرة[1] من عنده علم من الكتاب ليأتى بعرش ملكة سبأ . . وعندما تتحقق معجزة العلم يقابلها العالم ببعض ما فى الكتاب بأن ذلك اختبار من الله . . هل يشكر أم يكفر ؟ . .

إن المنهج واضح ، هو أن النعمة بلاء تختبر بها السماء البشر .

من يشكر فلنفسه . .

ومن يكفر فإن الله غنى عن العالمين .

ويأمر سليمان جنده بأن يحدثوا بعض التغيير فى عرش ملكة سبأ . .

(١) لم يختر سليمان أن يقوم الشيطان بمهمة إحضار عرش بلقيس ، وإنما عهد إلى مَنْ عنده علم الكتاب ، للجمع بين العلم والإيمان ، وذلك أدعى إلى اليقين المؤمن الذى دعا بلقيس أن تقول . ﴿ وأسلمتُ مع سليمان لله ربّ العالمين ﴾ [النمل ٤٤] ولم تقل : أسلمت لسليمان

ويحدث القليل من التغيير . .

ويسأل سليمان ملكة سبأ :

- أهذا عرشك؟ . .

فتقول :

- كأنه هو . .

ويعلن سليمان ومن معه الشكر لله على نعمة العلم وقوته . .

وتتعرف ملكة سبأ على مصدر القوة . . على الإيمان بالله . . وتلجأ إلى الإيمان . . وعندما تمت دعوتها لدخول قصر سليمان . . رفعت ثوبها عن ساقيها ؛ لأنها ظنت أنها ستخوض في ماء . . لأن قصر سليمان كان صحنه من زجاج أملس . . وتعلن ملكة سبأ إيمانها . .

ولنا أن نتساءل . . هل قالت :

- أسلمت لسليمان؟ . .

لا . . . . .

إنما قالت : ﴿ . . رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾ [النمل]

إذن . .

فعظمة الإسلام أن الإنسان لا يسلم لإنسان يساويه . . وإنما يسلم الإنسان لمن هو أعلى من الجميع بإقرار الجميع . .

الكل يسلم لله الواحد القهار .

هذه هى عظمة القرآن . .

فعندما يعرض علينا بعض النماذج . . فالهدف أن نتعلم وأن تبقى فينا الفائدة والقيمة والنتيجة . .

فمثلاً قصة موسى عندما يواجه السحرة . .

إن الله قد وضع لموسى منهجاً تدريبياً قبل أن يذهب إلى السحرة، تماماً كما فعل لآدم فى الجنة . .

فعندما ذهب موسى عند النار . . ماذا حدث له؟

دار حوار بينه وبين الله .

وكان الغرض من الحوار أن يأنس موسى للرسالة القادمة إليه، وأن يتدرب على إتقانها . .

يقول الله لموسى :

- ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) ﴾ ؟ [طه]

ويرد موسى :

- ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

ولنا أن نسأل سؤالاً يفرضه العقل المؤمن :

هل كان الله لا يعرف ما الذى بيد موسى؟

إن العقل المؤمن يعرف أن الله يحيط بكل شيء علماً . . ولكن سؤال الله لموسى هو سؤال للإيناس حتى يقلل من خشية موسى وخوفه .

ولقد كان يكفى أن يرد موسى قائلاً : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ ولا يضيف إلى العصا مهمتها التى يعرفها . . ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

لكن موسى يرغب فى إطالة زمن الإيناس بالله ، وفى حدود الأدب أيضاً ؛ لذلك يقول فى نهاية كلماته ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ[2] أُخْرَىٰ ﴾

هنا يقول الله فى المهمة التدريبية لموسى عليه السلام :

- ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) ﴾ [طه]

فيلقى موسى بالعصا . . ﴿ . . فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾[طه] . . وخاف موسى . .

(١) أهش بها على غنمى : أى أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ١٤٥) .

(٢) المآرب : الأغراض والحاجات .

لكن الله يقول :

- ﴿ وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [طه]

ولو لم يكن موسى قد خاف لقلنا : هذا نوع من السحر . .

ولننتبه إلى أن هناك فارقاً بين السحر الذى كان يمارسه بعض قوم فرعون ، وبين ما جاء به موسى . .

إن القرآن يصف حالة موسى :

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً . . ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

وهذا دليل على أن عصاه انقلبت إلى حية بالفعل والواقع . ومعنى ذلك أن حقيقة «العصا» قد تغيرت .

وهذا هو الفارق بين سحر قوم فرعون وبين عصا موسى .

إن سحرة فرعون . . يسحرون أعين الناس فلا ترى حقيقة الأشياء . . إنما يرى الناس الوهم الذى يضفيه السحرة على أعينهم . .

أما معجزة موسى . . ففيها تغيرت الحقيقة وأصبحت العصا . . حية . .

هكذا نرى معجزة الله . .

مؤانسة لموسى . .

ثم تدريب له . .

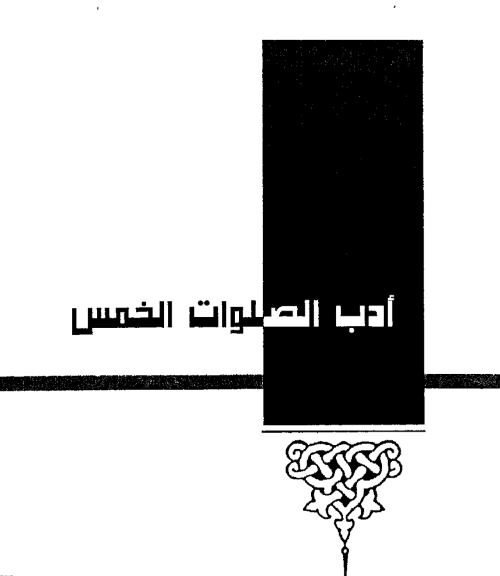
ثم تكليفه بالمهمة . .

أقام الله له التدريب حتى يباشر المهمة أمام فرعون :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) ﴾ [طه]

هكذا يعلمنا الله أنه لا مهمة دون تدريب .

ولا إنجاز موفق بغير إتقان للتدريب . .



أدب الصلوات الخمس

لا يكفى أن تؤمن . . بل لابد أن تجدد الولاء الإيمانى لله .

لقد فرض صيام رمضان لتصعيد الإيمان التعبدى للحق سبحانه .

وفى رمضان يخرج الناس عما ألفوا من عادة إلى التشريف بالعبادة .

إن التصعيد الإيمانى كان سبباً فى أن يختار الله الصيام فى رمضان، وهو الشهر الذى اصطفاه الله لينزل فيه القرآن [1] .

وإن الصيام لله . . لذلك فجزاؤه لا يدخل فى تقدير الجزاء المعروف لبقية ألوان العبادة .

وأيضا فإن للصائم فرحتين . . فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى الله [2] .

ولقد سنَّ رسول الله محمد ﷺ سنة الاعتكاف فى العشرة أيام الأخيرة من رمضان .

ومعنى الاعتكاف هو إلزام النفس بالإقامة فى بيت منسوب لله، وليقطع الإنسان عن كل منسوب لخلق الله، فيخرج الإنسان من بيته الأليف إلى بيت ربه الكريم، ويخرج من إلفه المتواجد مع الأهل إلى

---

(١) يقول سبحانه : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : «قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به . .» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) وكذلك مسلم (١١٥١) .

الوجود الكامل فى مناجاة الرب .

ويخرج عن كل ما اعتاد عليه خارج بيت الله ليخلص عشرة أيام ليصفو فيها مع الله .

وكل ذلك هو رحيل للإنسان من الموجودات إلى الأنس الكامل مع خالق الوجود؛ وذلك لأننا كما قلنا قد تكون نعمة الله على الخلق . . تعوُّد الإنسان على الاستسلام لعادة النعمة .

ولذلك يريد الحق أن لا تأخذ الإنسان نعمة الله من خالقهم، ولهذا فحين يأتى الإنسان ليعتكف فى بيت ربه . . فإن الله يطلب منا أن نعرف ما معنى بيت الله؟

هذا سؤال قد يثور فى نفس المؤمن، وخصوصاً أن أمة محمد قد خصَّها الله بأن الأرض كلها صارت لهذه الأمة مسجداً وهى طاهرة . . بينما كانت التعبدات التى كانت قبل رسالة محمد لابد لها من مكان مخصص لذلك .

ولكن لأن أمة محمد قد فهمت الدنيا واتسعت أمامها مدارك الحياة بمنهج الله .

فقد جعل [1] الله كل الأرض مسجداً لأمة محمد .

(١) قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمته أدركته الصلاه فليصل ، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى =

فالحقل يزرع فيه الفلاح ، ويسجد فيه لله .

والمصنع يصنع فيه العامل ، ويسجد فيه لله .

والفصل يتعلم فيه التلميذ ويدرس فيه الأستاذ ، ويمكن للجميع أن يسجدوا فيه لله .

إلا أن هناك فارقا بين بيت ينتسب لله باختيار خلق الله . . وبيت ينتسب لله باختيار الله .

فإذا جئنا إلى مكان من الأمكنة وخصصناه مسجداً . .

فالكل يقول عنه إنه أصبح بيتاً لله باختيار خلق الله . .

لكن بيت الله فى مكة هو بيت لله باختيار الله . .

ولذلك كان بيت الله بمكة هو اختيار من الله ليجعله قبلة لكل المساجد . .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) ﴾ [التوبة]

= قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)

وحين خصص الناس بيوتاً لله، وأقر الله فى قرآنه أنها بيوته[1] . . فإن لحرمة هذه الأماكن ما يقتضى ألا تتداول فيها حركة الحياة. إنها للصلاة وللعبادة.

لذلك حين راح رجل يبحث عن شىء ضاع منه فى المسجد. . قال له رسول الله ﷺ «لا ردَّها الله عليك»[2] .

لماذا؟

لأن المسجد هو المكان الذى لا يجب ألاّ يخطر فى بال الزائر إليه سوى أن يكون مع الله.

إن المسجد هو المكان الذى يصفو فيه العبد إلى الرب، وأىُّ صفقة يعقدها أناس فى بيت الله فلابد أن نحكم عليها بأنها صفقة خاسرة.

إن الله قد ترك للإنسان كل الأمكنة خارج المسجد ليتدبر الناس فى هذه الأمكنة. . فإذا دخلوا إلى بيته وهو المسجد فلابد أن نخلع وأن نترك على باب المسجد كل حاجاتنا ليكون الواحد منا فى رحاب الرحمن حقّاً وصدقا. . وأن نكون فى أنس مع الله.

---

(١) قال عنها سبحانه. ﴿فى بُيوتٍ أذن اللهُ أن تُرفع ويُذكر فيها اسمُهُ يُسبِّحُ لهُ فيها بالْغُدُوِّ والآصال (٣٦) رجالٌ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله .. (٣٧)﴾ [النور]

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٦٨) وأحمد (٢/ ٣٤٩) وابن ماجه فى سننه (٧٦٧) عن أبى هريرة.

لذلك فعلى المؤمن إذا دخل المسجد أن ينوى الاعتكاف[1] مدة الوجود في المسجد؛ لأن الإنسان لو تحدث فى أمر يتعلق بغير الله فيلعلم أنه غير ناجح.

إن بعض الناس قد تعوَّد على التواعد فى المساجد لينهوا فى هذه اللقاءات صفقات أو تجارة، أو أى مسألة من مسائل الدنيا[2].

ولكن على هؤلاء الذين يفعلون ذلك وهم يجهلون حقيقة أن الوجود في المسجد هو للعبادة أو تلقّى العلم.. على هؤلاء أن يعرفوا أن أى أمر من قبيل الصفقة، أو أى مسألة من مسائل الدنيا لا يمكن أن تحل فيها البركة لو أن إتمامها كان بالمسجد؛ لأن أمور الدنيا قد تجعل الإنسان يمتلىء بالصراع أو الحنق أو المداهنة أو الصوت العالى، أو غير ذلك مما يشوّش على أى إنسان يلقى الله ويقف بين يديه.

إن الوجود بالمسجد مع إخوة فى الإيمان هو لقاء المحبة لا لقاء

(١) الاعتكاف لغةً: الإقامة على الشيء خيراً كان أو شراً، قال تعالى: ﴿ ما هذه التَّماثيلُ الَّتي أنتُمْ لَها عاكِفُون ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وشرعاً إقامة مخصوصة على وجه مخصوص والاعتكاف مستحب في جميع الأوقات، وسنة في العشر الأواخر من رمضان اقتداء برسول الله ﷺ، وطلباً لليلة القدر؛ لأنها أفضل الليالى، والأصل في استحبابه الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

(٢) روى فى هذا حديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «خصال لا تنبغى فى المسجد: لايتخذ طريقاً، ولا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينشر فيه نَبْل، ولا يمر فيه بلحم نيِّء، ولا يضرب فيه حد، ولا يقتص فيه من أحد، ولا يتخذ سوقاً». أخرجه ابن ماجة فى سننه (٧٤٨) بإسناد فيه زيد بن جبيرة.

الصراع.

إن اللقاء مع الله فى المسجد ينشر الطمأنينة فى النفس.. فلماذا هذا الوجود من أجل الدنيا وأمورها ونحن فى رحاب الرحمن؟

ثم..

هناك بعض الناس ممَّن يدخل إلى المسجد ليجلس فى مكان محدد.

وهؤلاء ينسون أن النبى ﷺ قد نهى عن استيطان الأماكن فى المسجد، وهذا يعنى أن الإنسان يجب ألا يخصص لنفسه مكاناً محدداً فى المسجد، ويتخطى رقاب المصلين ليصل إلى ذلك المكان الذى خصصه لنفسه.

إن أى مكان فى بيت الله هو لمن سبق إلى نداء الله، وقد يظن إنسان أن الصلاة فى الصف الأول لها ثواب أكثر من ثواب الصف الأخير.. لا.. ليس ذلك صحيحاً.. لأنه ليس من المعقول أن يأتى إنسان إلى نداء الله متأخراً، ويتخطى رقاب الناس ويضايقهم ليصل إلى الصف الأول.

إن الله هو الذى يرتب الصفوف..

إن الإنسان عليه أن يسأل نفسه سؤالاً واضحاً.. كيف أدخل بيت ربى بهذا الأسلوب الذى أتخطى فيه رقاب الآخرين؟

إن على الإنسان المؤمن أن يجلس فى أى مكان فى المسجد دون

مزاحمة؛ لأن المعنى فى دخول المسجد أن يتفرغ الإنسان من الأنانية وصراع الحياة الدنيا، ويتفرغ تماماً بالتعلق بمحبة الله.. وإن الوجود فى المسجد هو تجديد لإيمان الإنسان.. هو تنقية الروح بصفاء جديد.

وإنْ صح التشبيه.. فإننا نقول: إن «بطارية» القلب يتم شحنها بالصفاء والارتقاء بالوجود فى رحاب الرحمن.. ولحظة أن يمتلىء القلب بالصفاء والارتقاء فعلى الإنسان أن يخرج إلى الحياة ليبدأ حركته بهمة ونشاط، بعد أن أخذ من المسجد فيض الإيمان والتقوى والبر ورضاء الرحمن.

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى حين يسنُّ رسوله ﷺ الاعتكاف فى العشرة الأيام الأخيرة فى رمضان فهذا ارتقاء وتصعيد للتكليف ورغبة فى أن يكون المسلم فى تمام الصفاء؛ لأن رمضان عندما جاء تم تدريب الإنسان على حرمان أشياء كانت حلالاً..

ولأن العشرة الأيام الأخيرة فى رمضان هى سنة للاعتكاف.. ففى ذلك اختيار أن يظل الإنسان فى بيته وبين أهله.. واختيار للإنسان أن يخرج من الألفة مع المكان والأهل.. ولعل ذلك تدريب للإنسان أن يخلص أياماً لله.. فيخرج إلى المسجد عشرة أيام، ويتدرب على الصفاء الذى يضىء الأعماق عندما يترك الإنسان أهله وماله، وفى هذا تدريب لرحلة أخرى.. هى ركن خامس من أركان الإسلام.. وهو الحج..

تلك الرحلة التى يترك فيها الإنسان بلده وماله وجاهه ويذهب إلى بيت الله .

هكذا يصبح الاعتكاف تدريباً على التقوى . . وإعداداً لرحلة الحج . . لاستكمال أركان الإسلام .

وهكذا تصبح سنة الاعتكاف تدريباً على الذهاب إلى الكعبة التى يتجه إليها كل مؤمن بقلبه ، ويزيد بها علم اليقين ، وكأنه يراها عين اليقين .

وهكذا تصبح سنة الاعتكاف بداية استعداد للذهاب إلى بيت الله ليؤدى الإنسان مناسك الحج ، ويبقى للإنسان بعد ذلك أن يكمل بناء إسلامه ؛ لأنه أقام أركان الإسلام من : شهادة : لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأقام الصلاة ، وأدى الزكاة ، وصام رمضان ، وحج البيت .

وقد يتساءل أحد : ما هو بناء الإسلام للمؤمن ؟

والإجابة هى :

- إن بناء الإسلام هو كل حركة من حركات الحياة فيها مراعاة لله .

ولهذا نجد أن الإسلام يتعرض لأشياء لا تخطر على قلب الذين شغلوا أنفسهم بالتشريع لصالح الناس .

فمثلاً : الجزار الذى ينفخ فى الشاة بعد ذبحها ليسلخها . . يحرم عليه

الإسلام أن ينفخ بفمه . . إنما لابد وأن تتم عملية النفخ بمنفاخ حتى لا يذهب نَفَسُهُ إلى لحم الذبيحة . . حدث ذلك قبل أن نعرف أن الهواء الخارج من فم الإنسان يحمل ثانى أوكسيد الكربون الذى يضر الإنسان .

إن الإسلام مثلاً يقرر أن الإنسان الذى يتولى عجن الخبز للناس لابد أن يضع لثاماً كلثام الأطباء على فمه وأنفه ، مخافة أن يعطس فيذهب الرذاذ إلى العجين .

والتشريع يقرر أن الذى يعمل فى «حمَّام» يدخله الناس للنظافة لابد أن يدلِّك يديه بقشر الرمان حتى لا تصبح ناعمة ، فلا تؤدى الغرض المطلوب من الاستحمام ، وهو إتقان نظافة المستحم .

إن التشريع الإسلامى تعرَّض لهذه الجزئيات البسيطة ، وتعرض لأهم منها . .

مثلاً : يفرض التشريع الإسلامى أن على والى المسلمين أن يعيِّن قائداً مبصراً لأى مكفوف ، وأن يكون أجر هذا القائد على بيت المال .

إن التشريع الإسلامى له هدف واضح هو أن ينظم كل حركة فى الحياة .

ويجب على من يقص شعر الرجال أن يمتنع عن العمل فى اليوم الذى يأكل فيه البصل ؛ لأن أنفاس من يقص الشعر وأنفه تقترب من أنف «الزبون» .

إن الذين يتهمون شرع الله بأنه ناقص لا يدركون أن النقص في إيمانهم.

إنهم لم يستطيعوا تطبيق منهج الله. . فحاولوا أن يكون الله على دينهم؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يكونوا على دين الله.

إذن: فحركة الحياة منظمة تمام التنظيم فى الحياة الإسلامية.

إن أى خلل فى الوجود. . وأى قبح فى الوجود له سبب واحد دائماً.

السبب هو أن منهجاً من مناهج الله قد تعطل.

نعم. .

ولنضرب مثلاً بسيطاً.

قد يحاول أحد القادرين الذهاب لشراء فاكهة من بائع تربطه به صداقة. . فيقول له البائع: «الفاكهة التى عندى اليوم لا تليق بك».

إن معنى ذلك أن الضمير الإيمانى لهذا البائع مفقود.

لماذا؟!

لأنه يعامل الناس بمعاملتين:

بشرٌ لا يرضى أن يبيعهم فاكهته التى ليست طيبة.

وبشرٌ يبيع لهم فاكهته التى ليست طيبة.

هنا نقول لمثل هذا البائع :

- إن قضية الإيمان عندك مختلَّة ؛ لأن الرسول ﷺ أوصى أن يحب الإنسان لآخيه ما يحب لنفسه [1] . . وأنت صنعت ميزاناً آخر دون ميزان الله . . فالناس كلهم سواسية . . فلماذا تفضِّل إنساناً على آخر .

وقد نلاحظ مثلاً أن البعض يشترى الفاكهة فى غير أوانها ، فيقطع مزارع العنب قبل أن ينضج [2] .

لماذا ؟ !

حجته فى هذا أنه يريد أن يكون أول من يبيع هذا الصنف أو ذاك فى السوق . .

فتكون النتيجة أن الناس يأكلون العنب فيكون بلا طعم . . فيسخط الشارى على النعمة .

لكن لو فهمنا عن الله لعلمنا ما يلى :

إن الله يريد أن يمتع عين الزارع والمشترى . . قبل أن يمتع الأفواه . .

فيقول سبحانه :

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٣) ومسلم (٧١ ، ٧٢) عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٢١٨٩) عن جابر قال . « نهى النبى ﷺ عن بيع الثمر حتى يطيب» وكذا مسلم (١٥٣٦) .

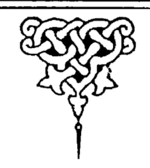
﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [الأنعام]

الهدف إذن أن يمتع الإنسان عينه قبل أن يمتع فمه، فيحصل على إشباع من النعمة، فيشكر الله عليها . .

وهكذا نرى أن كل من يعطل منهجاً من مناهج الله فإنه يسبب السخط . . فيكفر الإنسان دون أن يدرى بنعم الله .

ويا ليت الناس تحسن التعرف على منهج الله.

مهمة مصر كبيت للإسلام أن تحقق دين الله كعلم



لأننا نحن دار إسلام، ولأن علينا تقع مسئولية تحقيق الإسلام فليطبق كل منا الإسلام فى مجال ولايته.

إن الله سبحانه وتعالى حين نسلم زمامنا إليه.. يكون فى ذلك براءة من استعلاء بعض البشر على بعض البشر..

ولذلك يقول بعض العارفين من الصوفية:

«والسجود الذى يجتويه[1]، مَنْ ألفَ السجودَ فيه نجاة»

«اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه»

لأن البعض منا أو ممن سبقنا كره أو يكره أن يضع جبهته للأرض، لكن السجود لله الواحد هو إنقاذ من تكرار السجود لمظاهر القوة فى الأرض.

وهكذا يصبح الإيمان إعزازاً للنفس البشرية..

وضربنا المثل وقلنا: إن ملكة سبأ عندما أسلمت قالت:

﴿.. أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل]

ولم تقل: «أسلمت إلى سليمان»..

لقد كان سليمان وسيلة للغاية.. وهى الله.

وضربنا المثل بقصة موسى..

(١) الاجتواء: كراهية الشىء وعدم موافقته للنفس [انظر: لسان العرب]

وقلنا: إن ما جاء به موسى من معجزات لم يكن بالسحر . . إنما كان بتغيير الحقيقة . . وإن كان ما جاء به موسى قد كان من نفس النوع الذى قد يفهمه البعض على أنه سحر، والفاروق بين ما جاء به موسى وبين ما جاء به السحرة أن الحق سبحانه وتعالى حينما صنع التجربة مع موسى . . خاف موسى . .

ومعنى خوف موسى أن العصا انقلبت حية بالفعل . .

ولو كان الأمر سحراً . . لما خاف موسى؛ لأن موسى الذى تعلَّم فى الصِّغَر فى بيت آل فرعون يمكنه أن يميز بين السحر والحقيقة .

إن الساحر يلقى بالعصا وتظل عصًا، ولكن المسحور هو الذى يراها غير ذلك . . لذلك ها هى دقة القرآن فى العطاء :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا

أرجه [1] وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين (١١١) يأتوك بكل ساحر عليم (١١٢) وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين (١١٣) قال نعم وإنكم لمن المقربين (١١٤) قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين (١١٥) قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (١١٦) وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون (١١٧) فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون (١١٨) فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين (١١٩) وألقي السحرة ساجدين (١٢٠) قالوا آمنا برب العالمين (١٢١) رب موسى وهارون (١٢٢) قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون (١٢٣) لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين (١٢٤) قالوا إنا إلى ربنا منقلبون [2] (١٢٥) وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين (١٢٦) ﴾ [الأعراف]

(١) أرجه: أخره واجعل له موعداً.
(٢) منقلبون: عائدون راجعون.

إن دقة الأداء القرآنى تصور القصة كاملة، موسى أرسله الله إلى فرعون بعد أن درَّبه على المعجزة التى يحملها، وكانت المعجزة مصحوبة برسالة إلى فرعون . . لكن فرعون وقف عند المعجزة ولم يستوعب الرسالة، حاول فرعون أن يقهر معجزة الله بالسحرة، جمع لموسى كل السحرة، وأمام الجمع من البشر خرجت معجزة الله تلقف سحر البشر . . فآمن السحرة برسالة موسى وهارون . . وقالوا ﴿ . . **آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ** ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه] ورغم الهزيمة التى وقعت بهم إلا أنهم آمنوا .

تلك هى عظمة الإيمان . .

إنهم يعرفون أن الذى هزمهم هو الله وليس موسى؛ لذلك أسلموا الزمام لله . . وهذه هى عظمة الإيمان .

فى الإيمان أنت لا تسلمنى زمامك . .

ولا أسلم لك زمامي . .

بل أنا وأنت نسلم زمامنا لله . .

إذن . .

فليس هناك طغيان لواحد منا على الآخر . .

وتكون الكلمة هنا لله . .

وهكذا فالذين يفرُّون ويهربون من أن يحكم منهج الله حريصون على أن يستذلوا الناس بإسلامهم لمناهجهم، لكن لو أرادوا الخير حقّاً لقالوا:

- أنا وأنت نسلم وجهنا لمن هو أعلى منا.. فما هي الغضاضة[1] في ذلك؟

إذن: فالإسلام أخذ اسماً.. وأخذ وصفاً..

اسم لرسالة محمد ﷺ.

ووصف للمؤمنين برسالة محمد ﷺ.

تلك هي ميزة أمة محمد ﷺ.

إن كل أمة محمد ﷺ هي امتداد لرسالة محمد ﷺ.

ولأنه لم يبق هناك رسل، ولا أصبح هناك أنبياء..

إذن: فكيف يستقيم أمر رعاية منهج الله؟

لقد حفظ الله المنهج..

ولم يعد هناك سوى مهمة البلاغ للمنهج الرباني.

ولذلك.. فالعلماء الذين يحملون منهج الله للناس..

هؤلاء الذين يسمونهم كأنبياء بني إسرائيل..

(١) الغضاضة: النقص والذل والانكسار.

لماذا؟

لأن هؤلاء يحملون المنهج للناس . .

الناس يظنون خطأ . . أن العلماء الذين يحملون المنهج للناس . . هم من يرتدون زياً معيناً . . كزى خريجى الأزهر . . والذين يعملون فى صناعة الدعوة . .

لا . .

إن هذا اعتقاد خاطيء .

إن كل من علم حكماً من أحكام الله فهو عالم به .

لذلك قال الرسول ﷺ :

« نضَّر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه » [1]

إذن . .

ما دمت تعلم حُكماً من أحكام الله فأنت عالم .

هنا يجب أن نلتفت لفتةً . .

اللفتة هي :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٨) وأبونعيم فى الحلية (٧ / ٣٣١) من حديث ابن مسعود

إننا نحمل أمانة الإسلام كعلم . .

ونحمل أمانة الإسلام كتطبيق . .

ونحن نريد تحقيق الإسلام . .

ونحن نريد تطبيق الإسلام . .

ولنفترض أننا أصابتنا كارثة، أن حاول قوم أن نبتعد عن تطبيق الإسلام كمنهج سلوكى للبشر . . فماذا نفعل؟

كيف يكون موقفنا؟

إننا فى ذلك الموقف مطالبون على الأقل بأن نكون أمة تحقيق الإسلام . .

وهذا يعنى أن نحمل الإسلام كعلم . . إلى أن يأذن الله لخلقه برجل يحمل مبادرة سماوية ويقول :

- العلم الإسلامى والتطبيق الإسلامى يجب أن يكون الآن . .

أما أن نقف دون تحقيق الإسلام . .

أما أن نترك العلم بالإسلام . .

فهذا ما نقول له : لا . .

إننا يجب أن نحفظ شمعة الإسلام مضيئة . . ولنحافظ عليها . . لعل واحداً يأتي . . فيأخذ من هذه الشمعة قبساً، ويصنع من هذا

القبس نوراً وهَّاجاً . .

إذن . . فأمة مصر إن لم تكن قد حققت الإسلام منهجاً وسلوكاً، فهى مطالبة بنعمة الله عليها بالأزهر أن تحافظ على الإسلام علماً وتحقيقاً . . حتى تحفظ دين الله للدنيا . . وحتى يأذن لمن شاء أن يجرى الخير على يديه . . فيطبق منهج الله . .

إياكم أن تقولوا : «وما لنا بعلم الإسلام؟»

لأننا نحن دار إسلام .

ولأن علينا تقع مسئولية تحقيق الإسلام . . وإن لم يكن مطبَّقاً . .

وليطبق كل منا الإسلام فى مجال ولايته . .

فلو أن كلاً منا طبق الإسلام فيما ولايته فيه على نفسه لبحث الحكام عن تطبيق الإسلام . . ولسقط الحاكمون بغير الإسلام عن إصرار وكراهية للإسلام . .

وعندما يرى الحاكم أن الناس يحبُّون منهج الله ويطبقه أفراد المجتمع على أنفسهم، فلابد أن يتقرَّب الحاكم إلى شعبه بتطبيق منهج الله . .

إن الحكام فى أى زمان ومكان يبحثون عن رضاء شعوبهم، وإذا طبق كل فرد من الشعب منهج الله فيما ولايته فيه على نفسه لعلم الحكام أن المحكومين يعشقون منهج الله، ولتقرَّب الحكام إلى شعوبهم بتطبيق

منهج الله . .

إذن . .

فمهمتنا كمصر الوطن وبيت الأزهر . . أن نسعى ونُلِحَّ ونجاهد فى أن نطبق الإسلام، وأن نحقق الإسلام كعلم .

علم يُجلِّى عقيدة الإسلام الصافية .

ويبيِّن حقيقة القرآن . .

وبأن الله كنز فى القرآن كنوزاً . . تحتاج إلى جهد علماء المسلمين ليصلوا بالمسلمين إلى السَّبْق فى اكتشاف أسرار هذه الكنوز . . وبذلك نجعل عمل اليوم علماً . ونجعل زمن الغد كشفاً لكنوز القرآن . . ويتحقق بذلك أن القرآن ليس من كلام البشر . . لكنه الكتاب الجامع . . لأنه تعرض لأشياء لم تخطر ببال البشر أيام أن نزل القرآن على رسول الله ﷺ .

لذلك . . فعملنا كمسلمين الآن :

* أن نُجلِّى الإسلام عقيدة .
* أن نُجلِّى الإسلام عبادة .
* أن نكتشف بالعلم كنوز القرآن . .
* أن نُجلِّى الإسلام تعاملاً . .

وبهذا يكون المجتمع المتوازن بالعدل القائم على الحق .

وإذا سأل أحد منا : كيف نجلى عقيدة الإسلام؟

فإننا نجيب :

- العقيدة كما قلنا هى الإيمان .

والإيمان هو اطمئنان القلب إلى قضية ما . . بحيث لا تطفو لتناقش من جديد . .

هذا هو معنى الإيمان . .

اللـــه مـــوجـــود . .

اللـــه قـــادر . .

اللـــه خـــالق . .

هذه مسائل عقائدية . . لا تطفو مرة أخرى لتناقش من جديد . .

لأن هذه المسائل إن طَفَتْ إلى العقل لتناقش من جديد فهى ليست إيماناً . . بل هى مشروع إيمان . .

وهناك فرق بين أن تؤمن بأشياء مُتعقَّلة أى : عن طريق العقل . . وبين أن تؤمن بأشياء مُتصوَّرة . .

المطلوب دائماً أن نتعقل المسائل . . لأن التعقل يعطى الإيمان . .

مثلاً . . هذه الأحاديث التى يسجلها التليفزيون المصرى فى هذا المسجد أو ذاك .

لا يقال هنا : أنا أؤمن بأن هذه الأحاديث تم تسجيلها؛ لأن هذا أمر حسي . . وليس أمراً إيمانياً . .

الإيمان يكون بالأمور الغيبية . .

وعندما يستقر هذا الإيمان بالغيب وبقوة الدليل عليه . . فإن الإيمان يصبح يقيناً . .

لكن هذا اليقين له مراحل . .

مرة يكون عِلْماً فقط ، واسمه عِلْم يقين . .

ومرة يكون عين يقين . . أى : انتقل إلى شيء من الحسِّ . .

ومرة يكون حقيقة يقين . .

إذن . .

اليقين الإيمانى ثلاث مراحل :

عِلْم . .

عَيْن . .

حقيقة . .

ما هى حكاية «العين» و«العلم» و«الحقيقة» ؟

ونستطيع أن نضرب مثلاً بتجربة سفر قمتُ بها إلى أندونيسيا . .

– افترضوا أننى قلت : إنى رأيت فاكهة فى أندونيسيا . .

حجمها . . حجم البطيخ . .

ولونها . . لون البرتقال . .

وطعمها . . طعم الموز . .

ورائحتها . . رائحة التفاح . .

وبما أننى أستاذ لتلاميذى فسيصدقونني . .

هنا يقال : إننى نقلت لكم صورة علمية .

أى : أصبح عندكم علم يقين . .

ولكن . . بعد هذا عدت إليكم وأنا أحمل نفس الفاكهة التى حدثتكم عنها . .

هنا تنتقل معلوماتكم من دائرة «علم يقين» إلى دائرة «عين يقين» .

وبعد ذلك أحضرت سكيناً ، وقطعت الفاكهة ، وأعطيت كلاً منكم قطعة . . قطعة . .

هنا تنتقل معلوماتكم من دائرة «عين اليقين» إلى «حقيقة اليقين» . .

إذن: فحقيقة اليقين هى أعلى مستوى فى اليقين. .

ولذلك عندما سأل النبى ﷺ حذيفةَ:

- كيف أصبحت؟

قال حذيفة:

- أصبحت مؤمناً بالله حقّاً. .

لكن النبى ﷺ قال:

- لكل قول حقيقة. . فما حقيقة إيمانك؟. .

فـ «حقاً» هذه لا يجازف بها أحد.

قال حذيفة:

- عَزَفَتْ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها «أى: تساوى الذهب والتراب»، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمُون. . وأهل النار فى النار يُعذَّبون. .

قال محمد ﷺ:

- عرفتَ فالزمْ. .

إذن: فالحق سبحانه وتعالى حين أراد أن يعطى لنا هذه المراحل اليقينية. . فقد أراد أن يعطيها لنا على مراحل، فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ﴾ [التكاثر]

لكن فى سورة أخرى يقول لنا حقيقة اليقين :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾

[الواقعة]

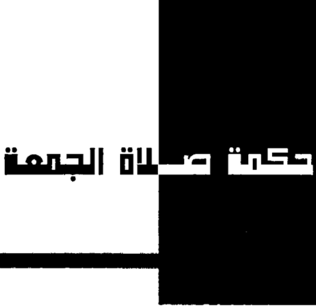
وقد نسأل :

لماذا جـاء بحقِّ اليـقين فى مـسـألـة الكفـار به، ولـم يَقُلْها فى مـسـألة المؤمنين؟

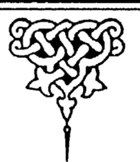
إن الإجابة هي :

- إن المؤمنين أهل الجنة مُكْتَفُون من الله بعلم اليقين . . أما الكفار فهم الذين يتشككون ؛ إلى أن يأتى لهم حق اليقين فى النار ويصطلوها . .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



حكمة صلاة الجمعة



صلاة الجمعة هى نداء المساواة بين البشر جميعاً . . وفيها ما يجعل كل فرد فى المجتمع يحس بالعدل .

إن الله سبحانه حين شرع أركان الإسلام . . إنما شرعها ليديم ذكر الإنسان للإله الواحد الأحد . .

ويديم ذكره للرسول الذى بلّغنا عن الله رسالة الإسلام . .

ويديم الإنسان منا الولاء للرحمن علانية كل يوم خمس مرات . .

ولكن الله لم يُلْزِم الإنسان بترك العمل إلزاماً واضحاً إلا فى صلاة الجمعة ليؤديها الإنسان مع الآخرين علانية ووضوحاً واجتماعاً، ليرى الإنسان فضل وجوده فى مجتمع إنسانى متساو . . فقال الله تعالى :

﴿ يَـأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا [1] الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾

[سورة الجمعة]

إن الله سبحانه لا يريد استدامة الولاء الفردى فقط . . وإنما يريد استدامة الولاء الجماعى . .

لأن الولاء الفردى قد يعلنه الإنسان بمفرده . .

---

(١) ذروا البيع : اتركوه . والنداء الذى يحرم عنده الشراء والبيع هو النداء الثانى الذى كان يؤذن به بين يدى رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر .

لكن الولاء الجماعى ... هو إعلان من كل إنسان بالعبودية لله أمام بقية مخلوقات الله . .

وحينئذ ينقطع من البشرية مظهر استعلاء إنسان على إنسان . .

يعلن لنا الله بالأمر أن يؤكد كل منا عبوديته لله . . لا مَن وراء بعضنا البعض . . ولكن باجتماعنا معاً فى لحظة واحدة ، هى وقت إقامة الصلاة فى يوم الجمعة . .

لماذا؟

لأن الضعيف منا فى الجاه أو المال أو النفوذ . . أو فى أى مظهر من مظاهر الحياة الخارجية . . عليه أن يرى القوى منا فى الجاه أو المنصب أو النفوذ . . على الضعيف أن يرى أن القوى عنه فى حركة الحياة الخارجية مساوٍ له فى سجوده لربه وخاضع مثله لمن له العُلاَ فى الأرض والسماء والكونَ . .

عندئذ يستقر فى ذهن الضعيف أن القوى يساويه . .

عندئذ يستقر فى ذهن القوى أن الآخرين الضعفاء شاهدوه فى موقف العبودية للخالق . .

وهنا يتلاشى مظهر التعالى بين البشر . .

ولذلك

يلزمنا الله أن نعلن العبودية له جماعة كل أسبوع مرة :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

[سورة الجمعة]

لماذا هذا اللقاء الأسبوعى؟

كأن هذا اللقاء تذكير لكل منَّا بعظمة الله الحق . .

لأن الإنسان عُرْضَةٌ أن يغفل إذا مر عليه أسبوع . .

وهذه الغفلة قد تقود إلى العلو أو الاستكبار من القوى على الضعيف . . فيتخيل القوى أنه أكثر قوة . .

والغفلة قد تُكوِّن فى نفسية الإنسان الضعيف مزيداً من الضعف، ولكن الإحساس الإنسانى بالمساواة أمام القوة الخالقة . . تعكس انحدار الضعيف إلى مزيد من الضعف، وتعكس انزلاق القوى إلى وَهْم أنه أكثر قوة . .

لا . .

صلاة الجمعة . . تذكير بأن كُلاً منا عبد . . يستوى الناس جميعاً فى العبودية .

فإذا رأى الضعيف منا رئيسه، وقد وقف خاشعاً أو مستجدياً[1] الله سبحانه.

ماذا يؤثر فى الضعيف هذا المشهد؟

إن الضعيف يشاهد من يعتبره القوى فى كل مظهر، يشاهده لحظة صلاة الجمعة مساوياً له.. هنا يشعر الإنسان بالمساواة مع كل البشر..

ودقة الأداء القرآنى تؤكد كلمة ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى: اتركوا البيع..

لماذا ذكر الله وجوب ترك البيع أثناء صلاة الجمعة.. ولماذا لم يأت ذكر الشراء؟

إن الله علَّمنا أنه لا يوجد بيع إلا إذا وُجِد شراء..

ولماذا إذن اختار الله أحد رُكْنى الصفقة «البيع» وترك الركن الآخر «الشراء»؟

لماذا إذن قال الله: ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾؟

إننا جميعاً نعرف ونلمس أن البائع يحب أن يبيع ما عنده..

لكن المشترى موقفه مختلف..

(١) الاستجداء: الطلب وسؤال الحاجة بإلحاح.

إن المشترى قد يذهب إلى الشراء وهو كارهٌ . .

لذلك يضرب الله المثل والأمر بضرورة تركْ البيع لحظة صلاة الجمعة ؛ لأن البيع هو أهم ركن فى الصفقة . . ذلك أن البائع يحب عملية البيع والمشترى موقفه يختلف . . إنه يعيش موقفاً غير محبَّب وهو الشراء ، بل إن المشترى قد يبحث عن سبب لا يشترى من أجله . .

لكن البائع يبحث دائماً عن ربح عاجل . .

لذلك آثر الله فى الصفقة التجارية أن يَنْهى عن البيع ؛ لأنه لا شراء دون بيع ، ولأن أهم أطراف الصفقة هو البيع . .

ولماذا حدد الله التجارة والبيع كنموذج يأمر بالامتناع عنه وقت صلاة الجمعة ووجوب تركه والذهاب إلى الصلاة؟

إن الله جل جلاله يعلم أن لكل عمل من الأعمال ميلاداً زمنياً . .

فعندما نقول للطالب : «اترك المذاكرة» . . فالمذاكرة لن تظهر حصيلتها إلا فى آخر العام . .

وعندما نقول للفلاح : «اترك الزراعة» فالزراعة لن تظهر حصيلتها إلا مع المحصول . .

لكن فى الصفقة التجارية عندما يصدر الأمر بإيقافها وقت الصلاة . .

فإن ذلك يعنى أن الصفقة التجارية ذات الطبيعة الخاصة التي تظهر فيها النتيجة على الفور والتى يتحدد فيها المكسب لحظة البيع ، هذه الصفقة فى العادة محدَّدة النتيجة ذات الطابع الفورى . . فأنت إذا كنت بائعاً واشتريت بضاعة بعشرة قروش وبعتها بخمسة عشر قرشاً . . فأنت تعرف مكسبك لحظة البيع . . إن الربح عاجل . . لذلك جاء المنع فى أمْتَعِ ما فى التجارة وأهمِّ ما فيها . .

إذن : عندما يطلب الله منك أن تترك شيئاً ستأتى ثمرته بعد عام . . فهو أوْلَى بأن تتركه لتذهب إلى ذكر الله . .

وهكذا نرى أن ترك البيع والسعى لذكر الله من أجل هدف واضح هو تجديد الولاء الجماعى لله سبحانه وتعالى . .

وهذا ما يجعل كل فرد فى المجتمع يُحِسُّ بالعدل . .

ويحقق فى المجتمع «الاستطراق» ، أى : مساواة أقدار الناس واحترام كل إنسان لنفسه ولمن حوله . . ويلغى التعالى أو الكبر أو استذلال القوى للضعيف أو خُنوع الضعيف أمام القوى . .

كلنا متساوون أمام القوة الأعلى . . الحق . . المتعال . .

وأيضاً . .

إذا نظرنا إلى توجيه الله لنا حين نقرأ فاتحة الكتاب :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤﴾ [سورة الفاتحة]

نرى أن كلاً منا يساوى نفسه بالآخرين . . كل منا يعترف نيابة عن نفسه وعن بقية المؤمنين بالعبودية لله والاستعانة به . . ولماذا إذن يدعو كل واحد منا لنفسه ونيابة عن الآخرين ، ويؤكد وجوده بين المؤمنين؟ . .

لماذا «يحشر» كل منا نفسه فى العبادة والاستعانة ؟ . .

لأن هذا معناه أننى قد لا أطمئن إلى أن عملى مقبول . .

وإذا أوجدنى الله فى جَمْع بشرى كبير ، فإن هذا الجمع لا يخلو من أن يكون به أحد العابدين أو أحد المستعينين بالله - له عمل مقبول - وإذا دعوت عن نفسى وعن الذى يقبل الله عمله ، فإن الله يقبلنى ما دمت فى زمرة آخرين يتقبل الله منهم أعمالهم . .

إن الواحد منا قد يقول لنفسه :

«وهل سيقبل الله عملى وأنا كذا . . وأعمالى كذا» .

إن كلا منا يعرف نفسه وعمله أكثر من أى إنسان آخر ، وكل منا يعرف عيوبه ؛ لذلك فعندما يحشر الإنسان منا نفسه وسط زمرة المؤمنين فإن الله قد يقبلنا . .

لقد عوَّدنا الناس عندما نشترى منهم ألاَّ نختار الأجود وألا نترك الأسوأ . . إن البائع يقول للواحد منا : إما أن تشترى الصفقة كلها أو تتركها كلها . . فإذا كان الله قد وضع هذا الرأى عند البشر . . ألا يمكن أن يطبقه معنا نحن العباد؟

إن الله وضع هذه الآية﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾[الفاتحة] ليجعل السيِّئ فينا يتلمَّس موضعه مع الأفضل فينا . .

ومن هذا تتعلم أنك عندما ترى واحداً مقبلاً على منهج الله . . وأنت غافل عن منهج الله . . فإياك أن تحتقر هذا الإنسان أو تقلل من قيمة ما يفعل ؛ لأنك ستأتى فى زمن تتمنى الوقوف بجانبه حتى يقبل الله عملك ، بفضل صلاحه . .

ولذلك فمن الخير أن يوجد أناس منقطعون إلى الله . . بينهم وبين الله وُدٌّ ؛ لأن خيرهم سيأتى إليك عندما تقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة]

لهذا فيجب ألا يكون حظ البشر الذين نراهم منقطعين لعبادة الله هو السخرية منهم . . أو نلمزهم أو نحتقرهم . . لأنك إن فعلت ذلك . . فإنك أنت الذى تضع نفسك فى الضيق . .

لماذا؟ . .

لأنك أنت الذى تُقلِّل من فرص أطواق النجاة أمامك فى هذه

الحياة . .

ولذلك فعليك أن تكثر من أطواق النجاة أمامك فى هذه الحياة .

وذلك يسير عليك ، وفى استطاعتك .

إنك عندما ترى أحد العابدين لله فأنا لا أطلب منك أن تكثر من احترامه . .

ولكن .

أنا أطلب منك ألا تحتقره أبداً . .

لأن ذلك العابد لله . . قد يقدِّم لك طوقاً من أطواق النجاة حين تشترك معه فى أداء أحد فروض الصلاة . . أو فى أى عمل من الأعمال . .

إنك قد تنفرد بالقيام بعمل ، ولا يقبله الله منك . . أما إذا دخلت مع هذا العابد لله فى عمل فهو مقبول . . إذن : فمن مصلحتك أن تجد أناساً طيبين عابدين لله . .

وهكذا نجد أن الولاء الجماعى يحقق استطراق العبودية والمساواة أمام الخالق .

فيجد الإنسان طوقاً من أطواق النجاة . . مُلْقًى إليه من أى عابد لله . .

إن الإنسان مرحوم بالجماهير . . ولنفترض أن مظاهرة قد قامت . .

وهتفت أنت هتافاً يغضب بعض الناس . . وكررته الجماهير وراءك . . وتأتى السلطة التى يمكن أن تعاقب على هذا الهتاف . . فيقول الإنسان «لا . . لست أنا» . . وهكذا يتوارى الفرد فى الجماهير . .

إذن : حين يرغم الله الناس أن يذهبوا إليه يوم الجمعة فى جماعات . . فهذا لمصلحة البشر . .

إن الله يخرج كلاً منا من ظنونه أو مخاوفه أو تعاليه أو ضعفه بالوقوف أمامه صفوفاً خاشعين . .

لكن ماذا عن الناس الذين يكسلون عن الصلاة، فالواحد منهم قد يتوهم أن الصلاة ستأخذ منه بعض الوقت . . وقد يتوهم أنه فى هذا الوقت سوف تتعطل حركته العملية فى الحياة . .

هنا نسأل هذا الإنسان :

- ما قيمة الوقت؟

- ما الذى تفعله بالوقت؟

يجيب هذا الإنسان :

- إنه وقتى وأتحرك فيه .

وإذا سألنا هذا الإنسان :

- إذن . . ما قيمة حركتك فى هذا الوقت؟

ستكون الإجابة :

- حتى تكون لى جدوى فى الحياة . .

ويترجمون جدوى الإنسان فى هذا العصر بالنقود غالباً . .

هنا نسأل :

- أليس من الاطمئنان أن يسرع الإنسان بالانتماء إلى نوعه الإنسانى لحظة الصلاة ..

إن الإنسان قد يخسر القليل من الوقت الذى يضحى به . . وقد يخسر القليل من النقود . . ولكنه يكسب الإحساس بأنه ينتمى إلى عباد الله . . إلى نوع من البشر يرتقى بالحياة فوق صراعاتها من أجل أن تكون الأعماق بعد ذلك صافية .

وأيضًا إذا ما تحرك الإنسان فى الحياة بالعمل وجاء بالمال . . فإن الله يريد أن يديم على الإنسان امتحان العبودية له . . فيؤكد للإنسان أن هذا المال الذى تظن أنه قد جاء إليك من حركتك فى العمل . . فإن الله يريد أن يأخذ بعضه لإخوانك الضعاف ؛ ولذلك يشرع الله الزكاة . .

إن المؤمن عندما يقرأ القرآن فسوف يجد أن القرآن لا يأمر بالزكاة فقط . .

لا . .

إن القرآن ينص على التأكيد بـ «افعل لقصد الزكاة».

وهناك فرق بين «أدِّ الزكاة» وبين «افعل واعمل وتحرك فى الحياة بقصد الزكاة» . .

كيف ؟

تجيب كلمات الله فى سورة المؤمنون:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾
[سورة المؤمنون]

كأن حركتك وعملك فى الحياة . . تلك الحركة وهذا العمل الذى تمتلئ فيه نيتك بالعمل على أن تكسب لتعول نفسك وأسرتك . . فإن الله يضع ضمن مسئولياتك للبشر الذين فى مجتمعك، والذين لا يقدر الواحد منهم على العمل . . فتعطيه من فضل الله عليك . .

إذن: فأنت لا تفكر فى نفسك فقط حين تقرر أن تعمل . . إنما الآخرون أيضاً لا بد أن يكونوا موجودين فى بالك حين تعمل وحين تكسب . .

إن عليك أن تحمل مجتمعك فى رأسك وأنت تفعل . .

أى: أنك لا تفعل وتعمل فقط، وأفكارك محصورة فى أن تُمتِّع

نفسك أنت ومن تعول . .

لا . .

إن الله يقرر أن الضعيف غير القادر على العمل لا بد أن يكون له فى مال من يعمل ويكسب نصيبٌ .

وهكذا يصبح أمر الرحمن لنا :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [سورة المؤمنون]

ذلك لأن غير المؤمن يفعل، ويتحرك فى الحياة لنفسه، ويتحرك فى الحياة ويعمل من أجل أهله . .

إذن : فما فائدة الدين فى هذه الحياة؟

إن فائدة الدين تتجلَّى عندما تتصاعد حركة المسلم بالعمل فى هذه الحياة . . ويضع من ماله نصيباً لغير القادر على الحركة أو العمل . .

إن الدين يقرر أن الإنسان إن لم يكن متديناً فسوف يعمل من أجل الكسب لنفسه ولأهله . .

ولكن المؤمن يعمل لنفسه ولأهله ولمن لا يقدر على الحركة أو العمل . . هكذا يصبح الإنسان مسئولاً عن مجتمعه . .

فعندما يكون هناك فائض عند الإنسان فإنه ينفق فى سبيل وجه الله .

فكأن قضية الزكاة من المال تظل فى بؤرة شعور الإنسان المؤمن وهو يعمل . .

وذلك الإحساس عليه أن يصاحب الإنسان المؤمن وهو ينتج ويعمل فى الحياة . . إنه لا ينتج على قدر استهلاك الفرد والأسرة ، ولكن الإنسان ينتج لمن يحيا معه فى دائرة مجتمعه وفى الكون . .

إن المؤمن مطالب بأن يتذكر ويقول :

- لست وحدى فى ذلك الكون . . إن الكون فيه أناس كثيرون ، بعضهم لا يقدر على العمل . . وقد جعلهم الله صورة ومثلاً فى الحياة لا ضنّاً منه عليهم بالرزق ، ولكن زراعة للذكرى فى نفس الإنسان حين يرى وهو قادر على الفعل والعمل . . يرى غيره غير قادر على الفعل والعمل . .

وكلنا من خلق الله . .

وفى لحظة أنْ يرى المؤمن القادر على العمل . . المسلم مثله غير القادر على العمل فإن ذلك يدفع فى نفسه «أريحية» ورغبةً فى أن يعطى غيره من فائض عطاء الله له . .

إن المؤمن القادر عندما يرى غير القادر يشعر على الفور بمشاعر من لا يقدر على العمل . .

وعندما تمر عليك أيها المسلم هذه المسألة . . رؤية عدم القادر على العمل . . فمن المؤكد أنك ستحس بمشاعره وتفترض فى نفسك أنك تمر عليك هذه اللحظة . . وتقول لنفسك : «كنت أحب فى مجتمعى أن يتحرك القادر حركتين . . وأن ينتج ضعْفَين . . حركة وإنتاجاً من أجل نفسه ، وأن يَسَعَ عملُه وإنتاجه من يعول ومن لا يقدر على العمل» .

ومن المؤكد أن المؤمن يشعر وهو يعطى الضعيف أن هذا العطاء شكر لله ؛ لأنه جعله قادراً ورفع عنه الضعف فى هذه الحياة . . وكلنا نعرف أن للحياة أغياراً . .

ومعنى أغيار الحياة هو عدم ثبات المتحرك فى الحركة فى هذه الحياة . . فنجد إنساناً قوياً قد أصبح ضعيفاً . . وكذلك أنا . . من الممكن أن أكون قوياً اليوم وأصبح ضعيفاً فى الغد . .

وما دُمْت قوياً اليوم وقد أصبح فى الغد ضعيفاً . . فمن مصلحتى أن أساعد بحركتى الضعيف . . حتى يمكن للقوى عنِّى فيما بعد أن يعين فترة ضعفى . . لذلك جعل الله الأيام دُوَلاً . .[1]

لم يخلق الله سبحانه قادرين على طول الخط .

ولم يخلق عاجزين على طول الخط .

---

(١) الأيام دُوَل : أى تتداول الناس ، حينًا باليسر وحينًا بالعسر .

بل جعل سبحانه من قضية القدرة والعجز . . قضية مستطرقة فى الخلق جميعاً . . حتى يظل الإنسان وهو القادر . . مدركاً أنه سيعانى يوماً من العجز . . وحين يستشعر الإنسان أنه سيعجز فيكون من مصلحته أن يتحرك القادر ويعمل وينتج حركة وإنتاجاً وعملاً يتسع لأهله وللضعفاء من أبناء مجتمعه .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



العمل إيمان بالله



إن أردنا أن تستقيم لنا أمور الحياة فلا بد أن نذكر أن أجر الإنسان يجب أن يتساوى مع تعبه . . ولا يظن أحد أنه قادر على خداع أحد . . لأن الإنسان يحيا دائماً تحت رقابة حيٍّ قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم .

شرع الحق تبارك وتعالى أركان الإسلام استدامة لإعلان الولاء لله ، الذى آمن به المؤمنون .

وذلك حتى يخرج الإنسان من غفلته ونسيانه . . وأن لا تشغله نعمة الوجود عن مسئولياته فى الوجود .

فالصلاة تضحية ببعض الوقت من حركة الحياة حتى يبارك الله سبحانه وتعالى فى بقية وقت الحياة . . بركة تُعوِّض ما فات من قصور الوقت .

إن الحق سبحانه وتعالى أراد عمومية إعلان الولاء من كل إنسان أمام الآخرين فشرع صلاة الجمعة . .

ولو أننا تنبهنا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [سورة الجمعة]

لو تنبهنا إلى هذا القول لعلمنا أن وقت الإنسان يجب أن يكون مُقسَّماً بين أمرين :

الأمـر الأول : أن ينشغل الإنسـان بمَنْ أنعم عليه بالحياة وبكل شيء فيها . . ليأخذ الإنسان من خالقه شحنة الطاقة التى تدفعه إلى الحركة والعمل والحصول على النعمة . . .

الأمر الثانى : أن ينشغل الإنسان بإتقان حركته وعمله ليحصل على النعمة بجهد وعمل .

لهذا يمكننا أن نرى الأمر الأول مُركّزاً فى الآية التى تقول :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾

[سورة الجمعة]

ويمكننا أن نرى الأمر الثانى مُركّزاً في الآية التى تليها وتقول : **﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾** [سورة الجمعة]

وكلٌ من الأمرين صادر ممَّنْ له حق الأمر فى خلقه ، وهو الله الذى خلق الكون . .

وإذا طبقنا الأمر الأول وهو **﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾**

فإن علينا أن نطبق الأمر الثانى ، وهو السعى فى الأرض بالحركة والعمل .

وإن لم نطبق الأمر الثانى وهو « التحرك فى الأرض والعمل » ، فإننا بذلك نخالف جزءاً مهمّاً فى تكليف الرحمن لنا . .

فالضرب فى الأرض والسعى إلى العمل هو الهدف الأساسى لخلافة الإنسان فى الأرض . .

فإن لم يتضرب الناس فى الأرض بالحركة والعمل . . واقتصروا على ما تخرجه الأرض من خيراتها . . فإنهم بذلك يكونون قد قصّروا فى منهج الله سبحانه وتعالى . .

وما دام الضرب فى الأرض للحركة والعمل . . فإن الله يجب أن يربط هذه الحركة وهذا العمل بما يُهمّ الإنسان أولاً . . وهو رزق نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً [1] فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا [2] وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ [3] (١٥) ﴾ [سورة الملك]

أى : أن الله سخَّر الأرض فى خدمة عمل الإنسان ؛ لينتج لنفسه من الأرض الرزق . .

---

(١) ذلولاً : مُذلَّلة مهيأة للسير عليها وللحركة والسعى فيها .
(٢) مناكبها : أنحائها وأرجائها ونواحيها .
(٣) النشور : البعث والعودة بعد الموت بعد النفخ الثانى فى الصُّور .

وقول الله : ﴿ فَامْشُوا ﴾ هو أمر بالحركة والعمل .

وقول الله : ﴿ فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أي : في دروبها التى قد تمتلئ بالمشقة والتعب ، وهذا يعنى أن كل حركة وعمل فى الحياة قد يكون فيها حركة ومشقة . .

ولذلك يجب على الذين يعملون أيَّ عمل ألا ينظروا إلى أجر العمل وحده . . ولكن عليهم أن يتقنوا العمل الذى يقومون به حتى يكون رزقهم عن هذا العمل حلالاً . .

إن الكثير من الناس العاملين يقسمون حديثاً لرسول الله ﷺ إلى نصفين ، رغم أن كل نصف فى الحديث يكمل النصف الآخر . .

فكثير من الناس العاملين يأخذون قول الرسول ﷺ : «أعْطُوا الأجير أجره » ، ويغفلون إكمال الحديث وهو «قبل أنْ يجفَّ عرقه » .

معنى ذلك : أن العمل يجب أن يتقنه الإنسان . . وأن يكون العمل قد أعرق مَنْ قام به . . ذلك أن قيام الإنسان بعمل صورى أو شكلى يدفع صاحبه إلى الهموم . .

وأيُّ عمل لا يعطى الإنسان العرق والمجهود لا يجعل أجر الإنسان حلالاً .

وكل فساد الدنيا من شكلية العمل دون العرق فى العمل . . هذا هو فساد الدنيا كلها . . « شكلية العمل » . .

إن الإنسان الذى يقوم بعمله دون إتقان مقصود أو غير مقصود . . ويدَّعى الشكلية فى العمل ومظهريته ليُخلِّى نفسه من مسئولية المسيطر عليه - رئيسه فى العمل - هذا الإجراء لا يحلِّل للإنسان أجره . .

لأن المسيطر على الإنسان ليس هو الإنسان ذو البصر المحدود، والرقابة المحدودة . .

إن المسيطر على الإنسان هو القيوم [١] الذى لا تأخذه سِنَةٌ [٢] ولا نوم . .

ولهذا فعلى الإنسان منا أن يعرف أن رقابة الإنسان المماثل لك لا يجب أن تدفعه إلى ادّعاء الانهماك، أو محاولة إجراء العمل بصورة شكلية . . لأن رقابة الحى الذى لا ينام هى الباقية .

إن كل فساد فى الحياة الآن، وكل مشقة نشقاها الآن، وكل مظاهر المتاعب الآن من أهم أسبابها أن الناس يذكرون أجر العامل، ولا يذكرون عرق العامل . .

وإنْ أردنا أن تستقيم لنا أمور الحياة، فلا بد أن نذكر أن أجْر العامل يجب أن يتساوى مع تعبه، ونحن نعرف أن الذى يخدع . . لا يخدع سوى نفسه ؛ لأن الإنسان لو كان يحيا تحت رقابة مَنْ يساويه لَهانَ عليه

(١) القيوم : القائم على أمور خلقه بالتدبير والإصلاح .
(٢) السنة : النعاس ، وهو أول النوم.

أمر استغفاله .

أما أن تكون تحت رقابة حيٍّ قيوم، لا تأخذه سِنَة ولا نوم . . فاعلم أن كل حركة لك مُحصاةٌ عليك .

واعلم أن حسابك لن يتأخر إلى الآخرة . . إنك لا بد أن تلقَى حسابك فى الدنيا، وذلك حتى يعصم الله فساد حركة الحياة من الذين لا يؤمنون بالآخرة .

إذن : فالحركة فى الحياة . . والعمل فى الحياة والمشى والضرب فى مناكب الأرض يجب أن نلحظ فيه الإتقان .

وليتذكر كل منا أنه قادر ، وليس عاجزاً .

فلماذا لا نستخدم ما أنعم الله به علينا من قدرات فى إتقان أعمالنا ؟

ولماذا نركن إلى « الشكلية » فى العمل دون إتقانه ؟

لماذا نجعل قدراتنا عاجزة ، رغم قدرتنا على أن نستخدم هذه القدرات بشكل ينتج لنا ولغيرنا ؟

إنك اليوم قادر ، وقد تصبح عاجزاً فى الغد .

ولعل العجز الموجود فى بعض سمات الأفراد . . يكون درساً بليغاً من الله سبحانه لنا . نجد العجز الشاذ فى خلق الله هو القلة . . فقد نجد بلداً تعدادها عشرة آلاف . .

فإذا ما صنعنا إحصاءً للشذاذ فى هذا البلد . . نجد أن « المجانين » عددهم « كذا » . .

والعُرْج عددهم « كذا » .

وفاقدى البصر عددهم «كذا» .

ونجد أن مجموع هؤلاء العَجزة أقلية بالنسبة لتعداد البلد نفسه .

وكأن الله قد قدَّر هذه الأقلية ، وجعلها بنسبة بسيطة ليلفت الناس إلى نعمة القدرة .

وكأن الله يريد بهؤلاء العجزة أن يثير انتباه الغافلين عن نعمة أنعم الله بها عليهم بالقدرة وعدم العجز . .

إنك لا تشعر بنعمة عينيك إلا عندما ترى فاقداً للبصر يتعثر . . حينئذ تفيق إلى نفسك . .

إنك لا تذكر قوتك وقدرتك على السعى إلا إذا رأيت أعرج . .

إنك لا تتذكر قدرتك على الحركة وخضوع جوارحك لإرادتك ، إلا حين ترى إنساناً لا تستطيع جوارحه أن تنفعل لإرادته . . يحاول أن يتحرك فلا يتحرك ؛ لأن عصب الحس قد انتهى . . فانتهت منه كل قدرة على الحركة . .

إذن : فهؤلاء العجزة جعلهم الله وسائل إيضاح لِيُذكِّر خلقه بالنعم التى أنعم عليهم بها .

ولذلك كانوا قلة . .

لكن لماذا اختار الله هؤلاء ليكون فيهم المثل ؟ . .

ما ذنب هذا ليكون أعمى . . ؟

وما ذنب ذلك ليكون أعرج ؟ . .

إنك أيضاً عندما تنظر إلى السطح فقط ، فأنت لا ترى إلا ما أخذه الله منه . .

لكنك تغفل عما أعطاه الله له نظير ذلك .

فلو أنك نظرت إلى مسلوب ظاهرة من ظواهر القدرة ، وأخضعتَ للتحليل الدقيق كُلَّ نعم الله عليه لوجدت أن الله قد أعطاه نعمة قد تعوضه المفقود منه ، ولنتأمل قول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاءُ مِنَ العَمى
فَجئْت عجيبَ الظنِّ للعلْم مَوْئلا

وَغَابَ ضياء العينِ للقلْبِ رائداً
لعلْمٍ إذَا ما ضيَّع الناسُ حَصَّلا

إننا نعرف عباقرة ينشئهم الرحمن حتى من منطقة عجزهم . .

وهؤلاء الذين يأخذون صوراً من صور العجز فى أجهزة الحياة ، هؤلاء قد يكونون مصدر القوة فى أشياء أخرى . .

لأن الإنسان إذا ما رأى نفسه قد فقد شيئاً دون بقية البشر . . فإنه يحاول جاهداً أن يجد فى نفسه موهبة أو مَلَكة يُنميها حتى يعوِّض النقص الذى فات منه . .

وكثير من العباقرة كانوا أصحاب نقص فى بعض أجزاء أو أجهزة البدن .

إذن . .

فالحق سبحانه وتعالى حين سلب شيئاً أعطى شيئاً آخر ، ولأن الله لم يتخذ ولداً . . لذلك فجميع الخلق بالنسبة إليه سواء . . يعطيهم بمجموع متُساوٍ ، وإن اختلفت الدرجة من مجال إلى آخر . .

ولذلك فقد وضع الإنسان نظرية قديمة . . تقول : إن الإنسان اللَّبِقَ . . الدقيق فى حساب قدرات الإنسان . . لو عاد إلى الإحصاء وصنع للإنسان عدة زوايا ، وأعطى كل زاوية درجة من الدرجات . . لوجد فى النهاية أن مجموع الدرجات مُتسَاوٍ .

فلو حسبنا للصحة درجة . .

وللسعادة درجة . .

وللذكاء درجة . .

ولنجاح الأبناء درجة . .

ولاتساع الرزق درجة . .

وجمعنا كل هذه الدرجات لوجدنا مجموع كل إنسان يساوى مجموع أى إنسان . .

ولكن التفاضل عند الله يكون بالتقوى [1] .

لكن الناس عندما ينظرون إلى مميزات الآخرين . . فإن عيون الإنسان تنظر إلى ما يميز إنساناً آخر، ويغفل عن مميزاته الخاصة . .

فإذا رأيت نفسك نظيفاً فى الهندام، ورأيت إنساناً آخر غير ذلك . . فإذا كنت عاقلاً عقلاً إيحائياً لكان يجب أن تلتفت وتسأل : « ترى ما هى الميزة التى يتميز بها هذا الذى هو دونى فى الزى ، ودونى فى الهندام حتى يعوض ما أنا فيه من حُسْن زىٍّ وهندام ؟ » لأنك لا يجب أن تحتقر إنساناً لأنه ناقص فى هذه ، ولكن عليك أن تعرف ما أنت ناقص فيه فيما يقابل الزائد فيك .

(١) يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] وقد قال ﷺ لأبى ذر : «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » أخرجه أحمد فى مسنده (٥ / ١٥٨) عن أبى ذر .

ولذلك يقول الحق :

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ..(١١) ﴾

[سورة الحجرات]

لماذا ينهانا الله عن السخرية ؟

لأن الإنسان قد ينظر إلى السطح ، وإلى ما أعطاه الله لك ؟

وعلى الإنسان أن ينظر إلى الأعماق ويبصر ما أعطاه الله للآخرين من قدرات قد تجعل الواحد منهم أفضل

ولأن كلاً منا قد أخذ من العطايا بميزان .

وقد سُئِلْتُ مرة :

- وما دام الأمر كذلك . . فماذا أخذ المجنون من ميزة فى هذه الدنيا؟

وكأن السائل يريد أن يقول : إن المجنون إنسان ، والإنسان مُكرَّم بعقله ، فماذا إذن أخذ المجنون من حظٍّ الحياة ؟

وقلت :

- ماذا يريد العقلاء الأذكياء من كل أجهزة أجسامهم ، الإنسان يريد أن تكون له الكلمة .

فإذا قال قولاً لا يردُّه أحد ولا يلومه أحد . .

وهذا هو حَظُّ المجنون فى الحياة .

يضرب المجنون عاقلاً . . فيضحك له العاقل، ولا يسأله عن فعله ولا يسأله الله يوم القيامة عن فعله .

وليس هناك إنسان أخذ هذا الحظ من الدنيا إلا المجنون . .

وهكذا نرى الغاية التى يسعى إليها الإنسان يأخذها المجنون ! !

ولذلك نجد العجب . . بينما نسمى واحداً مجنوناً ؛ لأنه فى حركة الحياة لا ينتج ولا يتسق مع المجتمع . . فإذا بالله يجعله فى لحظة من لحظات حياته قوياً بقوة عقل عاقل فى كل حياته . .

كيف ؟

الإنسان مِنَّا يعرف الحقائق . . لكن عقله يستر عن النطق بها . .

أما المجنون فيقول كلمة الحق ولا يبالى .

ولقد تمَّتْ تسمية العقل عقلاً ؛ لأنه يعقل الإنسان ويقيِّده ، فلا ينطق بأشياء .

لكن المجنون يقول الحقائق ولا يبالى .

قد يمشى المجنون فى مجتمع مقهور بسلطان ظالم ، فيهتف بسقوط الظلم ، والشرطة تضحك له والدنيا تضحك له . .

إذن : هو فى لحظة من لحظات جنونه قد أخذ ما لم يستطع عاقل أن يأخذه فى كل لحظات عقله . .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حين يوزِّع رزقه فى جميع جهات الحياة على خلقه . . فهو يفعل ذلك بالتساوى . . لكن الله لا يريد أن يكون كل إنسان هو تكرار لإنسان آخر . . فلا يحتاج أحد منا للآخر . .

لا . . .

إن الله يريد أن يربط الوجود بعضه ببعض ربطاً نفعياً . . فيكون كل إنسان مضطراً ومحتاجاً لأخيه الإنسان، ولا يتحقق ذلك إلا إذا اختلفنا فى مواهب الحياة.

الذين يأخذ الله منهم هذه المزايا ويعطيهم بعض مظاهر العجز لو فَطنوا إلى ذلك لاحترموا قدر الله فيهم ؛ لأن الأعمى قد يعطيه الله بصِيرة تفوق بصيرة المبصر.

لكن الأعمى قد يحاول بينه وبين نفسه أن يقلد المبصرين . .

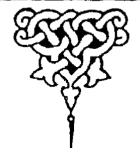
والقصير قد يحاول أن يصنع لنفسه حذاءً له كعب كبير ؛ ويصبح مثيراً للسخرية لأنه لم يحترم قدر الله فيه.

ورحم الله مَنْ قال فى ريفنا هذا المثل القديم : « من يعطى العمى حقَّه . . فهو مبصر » . .

من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن
من فيض الرحمن من فيض الرحمن من فيض الرحمن



لماذا كانت الزكاة ؟



إن من يظن أنه قد أوتى من الذكاء ما يخدع به الناس ويأخذ قروشهم ويضحك على هذا وذاك، ويذهب إلى عمله فلا يتقنه، ويطالب بأجره دون عمل حقيقى . .

إن من يظن نفسه كذلك هو الخاسر . . لأنه يكفر - دون أن يدرى - بأن له ربّاً رقيباً عليه .

إن استدامة إعلان الولاء لله الذى نؤمن به . . تتركز فى أركان الإسلام أولاً . . وأول هذه الأركان الشهادة بأن لا إله إلا هو . . وأن محمداً عبده ورسوله .

ثم إقامة الصلاة التى تأخذ بعضاً من الوقت .

ثم تأدية الزكاة التى تأخذ بعض ثمرة العمل .

وقد كان ذلك تأميناً للحياة للأقوياء وللضعفاء معاً .

فأن تصلّى . . فإنك تخشع وأنت قوى أمام الحق الكامل وهو الله سبحانه . .

وأن تصلّى وأنت ضعيف . . فإنك تقف بجانب القوى . . كلاكما خاشع ومتساويان أمام الحق الكامل والقوى العادل .

وفى ذلك تأمين لك بأن ضعفك لا يتركك فيه الرحمن الرحيم . . وهو خالقك .

وكذلك الزكاة . . تؤمِّن حياة القوى بأن تعرِّفه أنه يحيا فى مجتمع إسلامى يعطى القوىُّ فيه الفقيرَ بعض الحق . . فإن انقلب الغنى فقيراً . . كان له من قوة وعمل الأغنياء حَقٌّ .

وقلنا : إن الإنسان المؤمن يجب أن يتحرك فى الحياة حركة تتسع لحاجة نفسه ولحاجة من يعول .

وإن الإنسان المؤمن يجب ألا يهمل حاجة الإنسان الضعيف . .

لأن الضعيف مخلوق لمهمة تقوية الحياة . . فيجب ألا يضيع هذا الضعيف .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى مظاهر التغيير فى القوة والضعف حتى يجعل النفس البشرية تلتفت إلى أن الغنى الذى تأخذ الزكاة بعض ماله ، لا بد وأن يقدر أنه قد يأخذ يوماً ما زكاةً ممن سواه .

والآفة أن ينظر الإنسان فى التكليف بالزكاة إلى ما أخذَ منه أو ما فرضه الله عليه . . ولا ينظر إلى ما أعطاه الله له .

وعدالة الحكم تقتضى أن تنظر إلى الأمرين معاً :

أن تنظر إلى ما يؤخذ منك حينما تكون قادراً . .

وأن تنظر إلى ما يُعطَى لك حينما تكون عاجزاً . .

وهذه الحركة فى الحياة يسميها الله زكاء .

يسميها الله نماء.

يسميها الله طُهْراً..

وانظروا إلى تسميات الحق تبارك وتعالى للأشياء.. وقارنوا بينها وبين تسميات الذين يتجاهلون قوانين الله.

إن الحق تبارك وتعالى يسمى ما يؤخذ منك فى قوتك زكاة، وقد تبدو التسمية متناقضة لمحدودى الأفق أو من الشكل الظاهرى..

ويسمى الله «الربا» أى: الفائدة المالية التى يفرضها المرابى على من يقترض منه.. «الربا» المفترض فيه أن يزيد به رأس المال.. هذا «الربا» يسميه الله «مَحْقًا»[1].

من النظرة المتسرعة تبدو مقاييس الحق غير مقاييس الخَلْق..

المرابى يُقْرِض مائةً ليستردها مائة وعشرة مثلاً.. وهذا فى مقياس المرابى نَماء.

ولكنه عند الله «مَحْق».

والزكاة قد تأخذ بعض المال.. المائة عند المزكِّى تصير سبعة وتسعين ونصفاً..

هذا نقص واضح.

(١) هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ .. (٢٧٦) ﴾ [البقرة].

لكن الله يسمى ذلك نماء .

إن النظرة العميقة لمنهج الله نجدها ترشد وترتفع وترتقى بفهم الناس إلى حقائق الأشياء .

لأن الغاية بالرِّبا تصير إلى مَحْق . .

والغاية بالزكاة تصير إلى نماء وإلى طُهْر .

ولنشرح ذلك ، وسنجد أنها مسألة غاية فى البساطة . .

الزكاة تتطلب عناصر هى :

١- رجل يملك مالاً هو المزكِّى .

٢- مال يُزكَّى عنه .

٣- إنسان يتقبل الزكاة ؛ لأنه ضعيف . .

إن صاحب المال المزكَّى قد تدخل عليه الغفلة فى بعض مكاسبه . . فيأخذ شيئاً قد تكون فيه شبهة الحرام . . فيأتى الله بالزكاة لينقص المال ، ويطهر صاحبه من تلك الغفلة .

أما الإنسان الذى أصابه الضعف فى حركته ، فإنه عندما يجد أن الزكاة تأتيه . . فهو يعرف أن مسئوليته عند المسلمين كاملة .

ولكن لماذا يأتى النماء من الزكاة؟

ما الذى تُنمِّيه الزكاة عند المزكِّى؟

نقول :

وهل تعتقد أن النماء فى الأشياء هو الزيادة فيها فقط ؟

إن ذلك من غفلة الناس فى تقدير الأرزاق .

الناس دائمـاً ينظرون إلى رزق الإيجـاب، أى : الرزق الذى يزيد النقود . .

لكن الناس لا ينظرون إلى رزق السَّلْب .

وقد يسأل إنسان : «وما معنى رزق السلب؟» . .

لنشرح ذلك . .

لنفترض أن واحداً دَخْلُه مائة جنيه . . ولكن الله يفتح عليه أبواباً تحتاج إلى مائة وخمسين جنيهاً . . هذا الرجل لا تكفيه المائة جنيه . لكن هناك رجلاً آخر رزقه الله مائة جنيه . . ومنع الله عنه أشياء وأحداثاً تسلب منه خمسين جنيهاً .

لو قارنَّا حالة الرجل الأول، وحالة الرجل الثانى . .

نجد أن الرجل الأول يعيش فى كَدَرٍ وهَمٍّ . .

ونجد أن الثانى قد فاز بالطمأنينة وراحة البال .

إذن : فـهناك رزق اسـمـه «رزق الإيجـاب» وهـو الزيادة فى الدخل . .

وهناك «رزق السلب» وهو التقليل من أبواب تأخذ المال وتلتهمه.

ولْنرَ ماذا يعنى التقليل من الصرف ؟

مثلاً: يدخل الرجل بيته فتقول له زوجته: «ابنك حرارته مرتفعة»، ويستقبل الرجل هذا الخبر باطمئنان.

وهذا الاطمئنان مصدره الله؛ لأن رزق هذا الرجل قادم من حلال.. ويستدعى الطبيب فيؤكد قول الرجل وتمر الأزمة بسلام.

أما رجل آخر.. فيدخل على زوجته فتقول له زوجته: «ابنك حرارته مرتفعة».. ولكن رزق هذا الرجل قادم من مهاوش، ومن تظاهُرٍ بالعمل، وليس بإتقان العمل.. فعندما يتلقى الخبر يزداد قلقه.. هل الابن مصاب بتيفود أو غدة نكفية أو شلل أطفال.. ويدور وراء الأطباء فيحتارون معه ويظل يُجرِى تحاليل طبية.. وأدوية وخلاف ذلك من أدوات العلاج.

لو حسب هذا الرجل كم كسب من مهاوش ومن عدم إتقان عمله.. وكم صرف على ابنه.. لوجد أن الذى صرفه أكبر بكثير مما كسبه من مال ليس فيه الحلال..

لماذا؟

لأن الله يراقبنا جميعاً.. فهو سبحانه الذى لا تأخذه سنة ولا نوم،

فَلْينم عباد الله ملْءَ جفونهم، فهو سبحانه لا ينام[1].

هو الحى القيوم الذى لا ينام، ولا يستطيع أحد أن يستغفل أحداً، أو يضحك على أحد؛ لأن الله لا يستطيع أحد أن يخدعه، والذى يخدع هو فى الحقيقة لا يخدع إلا نفسه.

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [سورة البقرة]

إن من يظن أنه قادر على خداع الله فهو واهم، إن الله مُطَّلع على خفايا الصدور.

والذى يخدع.. لا يخدع سوى نفسه لأن ضرر عمله لاحقٌ به.

وفى توضيح آخر بالقرآن الكريم.. يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [سورة الكهف]

إن من يظن أنه قد أوتى من الذكاء ما يستطيع به أن يخدع الناس، ويأخذ قروشهم، ويضحك على هذا وذاك.. ويخدع فلاناً وعلاناً،

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه» أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٩) وأحمد فى مسنده (٤/ ٤٠٠) وابن ماجه فى سننه (١٩٥).

ويذهب إلى عمله فلا يتقنه، ويطالب بأجره دون عمل. أو حتى لايذهب إلى عمله، إنما يوقع على الحضور والانصراف دون أن يعمل.

إن من يظن نفسه كذلك هو الخاسر.. لأنه يكفر دون أن يدرى بأن له رباً رقيباً عليه؛ لأن الرقابة ليست فى استعمال الذكاء ضد الآخرين.. وليست فى الاستيلاء على أموال الناس، وليست فى دفتر التوقيع دون إتقان العمل.

إن الرقابة لو كانت كذلك لفسد أمر الحياة من البداية.

إن الرقابة هى رقابة الله.

ورزق السلب أحد وسائل الرحمن.. وهو مهم فى الحياة.. لذلك نجد أناساً كثيرين يعيشون فى أمن واستقامة، ويربون أولادهم جيداً ويعيشون جيداً.

ويتعجب الناس سائلين:

كيف يعيش هؤلاء؟

إنهم يعيشون من بركة الله فى رزق الإيجاب ولو قليلاً، ويعيشون من بركة الله فى رزق السلب، أى: لا يأتى إليهم بما هو فوق طاقاتهم.

وهناك بنود أخرى عند الله.

إذن: فعندما تأتى الزكاة لتصبح نماء.. فإنها تمنع عنك كوارث قد

تسرق معظم المال . . وبهذا يزيد المال . . لأن من عنده مائة . . ويدفع عنها الزكاة لتنقص وتصبح سبعة وتسعين ونصفاً . . فمعنى هذا أن الله منع عنك مصرفاً أو كارثة تأخذ من أصل المال نصفه .

فكأن الله وهب للإنسان مائة وخمسين . . لا ينقصون سوى مبلغ الزكاة .

هنا نتساءل : هل زاد عطاء الرحمن أم لا؟

هذا هو النماء .

هذا من ناحية المزكِّى . .

أما كيف نراها من ناحية المزكَّى عليه؟

كيف تكون الزكاة تطهيراً ونماء؟

إن الزكاة تطهير للمزكَّى عليه أيضًا ؛ لأنه ضعيف ينظر إلى الأقوى منه ، وقد تتحرك فى نفسه قوى الغيرة والحقد والكراهية والغلِّ .

لكنه حين يرى إنساناً أنعم الله عليه . . ثم يمد هذا الغنى يده ببعض نعمة الله إلى المزكى عليه . . هنا يقول المزكى عليه : «إن نعمة الله على الغنى قد نفعتنى» . .

إذن : فلا مجال للغل أو الحقد فى نفس المزكى عليه . . وفى هذا تطهير لنفس الضعيف .

إن الزكاة تعطى للضعيف ما لا تعطيه حركته فى الحياة .

وأيضا تدل الضعيف على حقيقة قد تكون خافية عليه . . وهى أنه يحيا فى مجتمع متكامل مؤمن ، وأنه لا يستقبل أحداث الحياة وحده ، وهو ليس غريباً عن مجتمعه ، فإذا داهمته كارثة فإخوانه المؤمنون جميعاً من حوله [1] .

إذن : فهو لا يبالى بأحداث الحياة . . ما دام هناك أناس تربطهم به أخوة إيمانية .

والخير عند المؤمنين يمتد إلى الضعفاء منهم .

وهذا هو النماء لإنسانية الضعيف . . نماء يجعله يشعر بالقوة وبالكرامة .

أما إذا انقبض الناس عن الضعيف ، وداهمته مشاكل الحياة وهو أعزل . . فإن ذلك يؤكد غربته فى المجتمع ، ويثقل الضعف من مظهر العجز عن الحركة فى المجتمع إلى عجز الروح عن مواجهة الأزمات . . فهذا هلاك له ، وهلاك لآماله فى الحياة ، وتربية للحقد فى نفسه ، وللغل فى روحه ، وللحسد فى نظرته .

(١) عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٨٦) .

لكن عندما يجد الضعيف نفسه وسط مجتمع مؤمن متكافل، فإن الضعيف يذوق حلاوة عطاء المزكى لينقذه من الضعف، ويرى ذلك العمل جميلاً . . وقد تثير فيه هذه المسألة السَّعْى بالعمل فى الحياة، ليزكى هو أيضاً عن عمله . .

إذن: فالزكاة شرعها الله تطهيراً ونماء.

وإن بدت الزكاة فى ظاهرها أنها نقص . . إلا أنها ليست كذلك . . إنها نقص بقول ومنطق محدودى الأفق من البشر، لكنها بمنطق الله ومقاييسه هى فوق ذلك كله.

فإذا تحرك الإنسان وعمل فى الحياة وفى مخيلته أنه يعمل ويسعى لنفسه وللضعفاء من حوله . . هذا الإحساس يجعله مستريحاً إن واجهه الضعف يوماً فى متغيرات الحياة، سيجد أناساً يتحركون ويعملون لأنفسهم وله أيضاً.

وذلك هو التأمين على الحياة.

وفى ذلك يحس الإنسان أنه لا يوجد ما يخيفه من حياته.

إن الحق سبحانه وتعالى حينما شرع المنهج الإيمانى . . ضمن للناس مقدمات حياتهم فى ضوء ما قاله الله فى الحديث القدسى:

« إياكم أن تنشغلوا بالرزق انشغال تعب القلوب ».

وهكذا نرى أن هناك فرقاً بين أن يتعب بدنك، وبين أن يتعب قلبك.

إن الذى ينهى عنه الله فى أمر الرزق هو تعب القلب؛ لأن الرزق إما مطمور فى الأرض. . فإن كنت قوياً فسوف تذهب إليه لتجده. . وإن كنت ضعيفاً فسيذهب إليه المؤمن القوى، ويجده ويزكى منه على الضعيف.

إذن: منهج الله يضمن هذه المسألة، وما دام منهج الله يضمن هذه المسألة. . هنا يجب ألا تنشغل، وألا تتعب تعب قلب، ولكن يمكنك أن تتعب بجوارحك.

وهناك بشر لا يستطيعون التفريق بين تعب الجوارح وبين تعب القلوب.

ونحن نقول لهم:

- إذا سمعت حديثاً أو كلاماً أو حكمة تنهاك عن التعب من أجل الرزق. . فقل لنفسك: إن المقصود به أن تبتعد عن تعب القلب ولاتشغل نفسك بالأوهام أو القلق. .

ولكن ليس معنى ذلك أن تركن إلى الكسل، وإنما عليك أن تكدح بعملك وجوارحك، فحواسُّك وتركيزك فى إتقان عملك وبحثك الدائم عن إتقان هذا العمل. .

كل هذه هى جوارحك التى يجب أن تتعب فيها وبها من أجل الرزق. .

إن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . .

تلك هى مسألة المؤمن .

أما أن يقول واحد: توكَّلْ فقط ولا تعملْ . . فهذا القول يجب أن نرفضه .

قد يرفع أحدهم حجة فى وجوهنا ليقول :

« لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير.. تغدو خماصاً[1] وتروح بطاناً[2] ».

إن الطيور تغدو وتروح . . هذا عمل الطيور . . والعمل واجب لكل إنسان .

وقد يأتى إليك بعض محترفى التقوى واليقين ، ويكسل عن عمله ويقول : إنه متوكل على الله .

هنا نقول له : سنجربك فى مسألة بسيطة فى حكاية التوكل هذه . .

سنأتى لك بمائدة شهية ، ونضع لك الأكل على المائدة . وعليك (بفهلوة) التوكل ألا تمد يدك ، وأن تجعل اللقمة تقفز من الطبق إلى فمك .

لا أحد يستطيع ذلك . .

هنا نقول :

(١) خماصاً : خاوية البطون جائعة .
(٢) بطاناً : قد امتلأت بطونها برزق الله .

- لماذا لم تتوكل هنا؟

هذا النوع هو «كذَّاب التوكُّل» . .

لأن الصدق فى التوكل يعنى «أن يتعب بدنك ، ويرتاح قلبك» .

لذلك فالله جل وعلا يطمئن المؤمنين الذين يصيبهم القلق والخوف من بطش ذوى السلطان . . فى مسألة الرزق فقال :

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [سورة قريش]

فهاتان المسألتان هما سبب إرهاق الناس كلهم . . لذلك يقول لنا الرحمن :

اتركوا هاتين المسألتين لى ؛ لأنى أضمنهما للمؤمن ، وعلى المؤمن أن يتقن عمله فيما دون ذلك .

ولذلك فالحديث القدسى الذى نزل من رب العزة جاء ليعدل ميزان المجتمع . . يقول الله سبحانه وتعالى فيه :

«لا تخافن من ذى سلطان.. ما دام سلطانى باقياً.. وسلطانى لا ينفد أبداً.. يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق فخزائنى ملآنة.. وخزائنى لا تنفد أبداً.. يا ابن آدم لا تطلب غيرى وأنا لك فإن طلبتنى وجدتنى.. وإن فُتَّنى فُتُّك وفاتك الخير كله.. يا ابن آدم خلقتك للعبادة فلا تلعب، وضمنت لك رزقك فلاتتعب».

وقد يظن البعض أن العبادة هى إقامة فرائض الدين . . كالصلاة والزكاة والحج . . لكن فرائض الدين لا تتضمن إيمان الدين فقط . . لكن يضاف إليها العمل . . لأن العمل عبادة لله لأنه استخلفنا فى الأرض .

لذلك فعلينا أن نتقن العمل ، ولا نحمل هموم الرزق .

وقديماً قالوا :

ليس بحمْلٍ ما أطاقَ الظهْرُ

ما الحمْلُ إلا ما وعاه الصدرُ

أى : أن ما تستطيع أن تحمله فوق ظهرك . . فليس بحمْلٍ لأنك قادر عليه ؛ لكن الهم فى الصدر أكثر عذاباً من أى شىء ثقيل .

وما زلت أذكر لأحمد شوقى أمير الشعراء أثناء تكريم مصر لسيد نصير بطل حمل الأثقال فى العالم قوله :

شرف النصر ارفعْ جَبينكَ عالياً

وتلقَّ من أوطانك الإكْليلا

قُلْ لى نصير وأنت بَرٌّ صادقٌ

أحملتَ إنساناً عليك ثقيلا

أحملتَ دَيناً فى حياتك مرة

أحملت يوماً فى الضلوع غَليلا

أحملتَ طغيانَ اللئيم إذا اغْتَنى . .

أو نال من جاه الحياة قليلا

أحملتَ ظلماً من قريب غادر

أو كاشحٍ [1] بالأمسِ كان خليلا

أحملت منا فى النهار مكرَّراً . .

والليل من مُسْدٍ [2] إليك جميلا

أحملتَ فى التاج الغبىٍّ إذا التقى

من مادحيه الحَمَدَ والتبجيلا

هذى الحياة وهذه أثقالُها

وزنَ الحديد بها فَعادَ ضئيلا

يشرح شوقى ألوان الهموم فى الحياة : أن يكون واحد غبياً لكن حوله من يمجِّده ويبجِّله . .

أو لا يعرف الكلام فيقال عنه : فصيح العرب . . أو بخيل فيقولون له : أنت أكرم من حاتم الطائى . .

أو أن يقدم لك أحد الناس جميلاً ، فيظل يمُنُّ به عليك طوال الوقت .

تلك هى هموم الحياة التى يتضاءل أمامها وزن الحديد .

(١) الكاشح : الذى يضمر لك العداوة .

(٢) أسدى لك معروفاً : صنعه لك .

الموضوع	الصفحة

هذا الكتاب

في رحلة العطاء المتواصل لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى إشراقات و إلهامات متجددة تنير الطريق للسالكين ، وتهدى الحائرين ، وتعلم البشرية ما خفى عليها من أمور الدين .

إن « مكتبة الشعراوى الإسلامية » هى إحدى هذه العطاءات التى تولت « مؤسسة أخبار اليوم » إصدارها ، وصدر فى إطارها العديد من الكتب ، يتناول كل كتاب منها موضوعاً مستقلاً بذاته ، يعالج قضية من القضايا الدينية التى تهم كل مسلم و مسلمة ، وتفتح آفاقاً جديدة فى تفكيره .

وهذا الكتاب فيض أفاضه رحمن الدنيا و الآخرة على إمام الدعاة ، وأجراه على لسانه فى لمحات إيمانية و نفحات قلبية ، ينير طريق الهدايا للحائرين المتحيرين .

وسيصدر هذا الفيض المبارك فى أجزاء أربعة ضمن « مكتبة الشعراوى الإسلامية » .

أخبار اليوم التجارية
هليوبوليس